إثـم مركّـب

إثـــم مُركّـــب

بثينة الدسوقي

اسم الكتاب: إثم مركّب
اسم الكاتب: بثينة الدسوقي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف:
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 10411
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85706 – 8 – 7

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com

facebook Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إذا كان الكتاب الذي نقرأه لا يوقظنا بخبطة على جمجمتنا، فلماذا نقرأ الكتاب إذن؟ كي يجعلنا سعداء كما كتبت؟

يا إلهي، كنا سنصبح سعداء حتى لو لم تكن عندنا كتب، والكتب التي تجعلنا سعداء يمكن عند الحاجة أن نكتبها، إننا نحتاج إلى تلك الكتب التي تنزل علينا كالصاعقة التي تؤلمنا، كموت من نحبه أكثر مما نحب أنفسنا، التي تجعلنا نشعر وكأننا قد طردنا إلى الغابات بعيداً عن الناس، مثل الانتحار.. على الكتاب أن يكون كالفأس التي تحطم البحر المتجمد في داخلنا، هذا ما أظنه.

فرانز كافكا

الإهداء

إلى كل لحظة تمسكت فيها بالأمل والحلم

"أحبك".

تلك اللحظات

ألزهايمر

يبدو الإبقاء على الصلات الإنسانية في عالمنا المعاصر أمراً شديد الصعوبة!

وضعت علامة تعجب كبيرة في نهاية هذه الجملة التي كتبتها على صفحتي في الشبكة الإجتماعية، كُتبت علامة استفهام أولاً نتيجة اهتزازات المترو ولكني قمت بإعادة تحريرها، ووضعت الهاتف في جيبي بجوار القلب، كم حذرني الصغير من وضعه بهذا المكان! لكني لا أستمع لكلام الصغار!

بدأت الرنات القصيرة تتوالى؛ لابد أنها إعجاب من الأصدقاء كلهم بهذه العبارة، كلهم، بما فيهم من هم غير أصدقاء بالفعل!

اهتز المترو مجدداً فترنحت شابة واقفة تمسك بالعمود المعدني، نظرت لها طويلاً ولم أعرض عليها مقعدي، لم يفعل أحد، العالم يتغير ولم يعد بإمكان أحد أن يتنازل عن أي شيء حتى لو كان مقعد في المترو!

نظرت في ساعتي وانتابني القلق فقد أتأخر على ميعاد العمل ويكون مصيري الطرد من مصنع الباشا لو استمر الترام على هذا البطء! سيقتلني مرزوق أفندي رئيس الوردية فهذا هو تأخيري الثالث هذا الشهر، لكني

أحب مرزوق أفندي فهو رغم كونه "دقّة قديمة" إلا أنه رجل الشدائد والملمّات ورغم إن كلماته نافذة عند الباشا فهو لم يستغلها إلا ليعيد الحق لصاحبه، ليته فقط يتخلّى عن الطربوش!..

استندت برأسي على الزجاج الذي يجاورني فانتقلت الإهتزازات إليها ولمحت الحوائط المجاورة تسير بسرعة الريح عكس الإتجاه بينما اختفت المحال واختفى الناس وساد الظلام رغم أننا صباحاً! اعتدت هذه الغرائب واعتادتني فلم اتوقف عندها طويلاً وذهبت بخيالي لزوجتي التي سأفتقدها خلال ساعات العمل الطويلة، أحب عزيزة جداً وأتعلق بها كطفل، وهي تحبني جداً، ألمح هذا في عينيها كل صباح وكل مساء، أتمنى أن تظل معي كل لحظاتي، ومعها محمد وسميرة أولادي وقرة عيني، أتمنى أن أذهب معهم في مكان جميل، ونهرب من ضغوط الحياة والمال وراتبي الصغير، ومشاجرات الجيران ومظاهرات الطلبة ومطاردات الديّانة! أتمنى أن يشفى محمد ابني من هزاله المستمر، وأن .....

لم يأت الكمساري حتى الآن! لم يظهر بالعربة منذ ركبت!

جاري يلتفت إلي ويسألني عن الساعة فأخبره، فيرد أنها حتماً معطلة، ننظر معاً في الساعة، يؤكد ثبات عقرب الثواني وأؤكد حركته، فيبتعد عني، يبدو خائفاً!

يرن الهاتف بجوار القلب فيأتيني صوت غريب...

- بابا، انت فين!!

- في طريقي للمصنع

- أي مصنع؟ بابا من فضلك قول انت فين؟!!!

- انت مين، دة مش صوت محمد ابني!!

- ممكن تخلي اي حد معاك يكلمني، ارجوك

انظر للهاتف قليلاً واعطيه لجاري الذي يتناوله ويحادث المتصل جلست مع جاري في المحطة قرابة الساعة متأففاً من التأخير، وأكلت الحلوى التي اشتراها لي وشربت العصير.

جاء أحدهم وكان رجلاً سميناً سكن الشيب شعره، جاء لاهثاً ممسكاً قلبه يغشاه العرق وشكر رفيقي كثيراً وحاول منحه المال، راقبت الرجل يرفض ويؤكد انه فعل ذلك لوجه الله، أدرت رأسي وهممت بالوقوف والسير بعيداً فأمسك بي القادم من ذراعي

- ثواني يا حاج، أصبر يا بابا، هنروح البيت حالاً

- انت ابني؟ انا ابوك؟!!!

حانت مني التفاتة فرأيت انعكاس وجهي في مرآة مغبرة على الحائط، كان وجهي غريباً جداً!!! وجه رجل عجوز جداً، جداً.

إثم مركّب

اسمي..محمد حسين الغرباوي

وفي رواية أخرى..محمد حسين شوقي الغرباوي

***

هذه المرة تختلف، أشعر باليأس يكتنفني والعجز يقتلني، بل هو تيه يغلف كياني بأكمله، الأمر صار أكبر من مشكلة صغيرة أحياها منذ زمن، الرجل يصر على موقفه ويخبرني أن علي تزويده باسم آخر ليصبح اسمي رباعياً، وإلا سيضطر لاستخراج جواز السفر باسم ثلاثي وهو ما لن تقبله كثير من الدول، فكرت أن أخبره عن شوقي، ليدسه بين الاسماء الثلاثة المتوافرة، لكني تراجعت، فالأوراق المطلة أمامه من ملفي البائس لا يأتي فيها ذكر شوقي مطلقاً.

شعرت أن الله يرفضني، أنني أسعى للذهاب إلى بيته الحرام، وهو يرفضني بهذه العراقيل..

سألت أبي ذات يوم بعيد بكل براءة الأطفال: أين جدي شوقي يا أبي؟ هل مات قبل أن أُولد؟

فأجابني: جدك ليس اسمه شوقي، بل عبد الله

ـ ومن هو شوقي؟

ـ أنا، أنا اسمي حسين شوقي، اسم مركّب

ـ ولماذا يكون لك إسمين؟

ـ حدوتة لطيفة تستحق أن أرويها لك، عندما كانت جدتك تلدني، كانت هناك قابلة تقوم بعملية الولادة، وتمنت على جدتك أن تسمي طفلتها شوقية كاسمها، أو شوقي لو كان ولداً، ولّما كان جدك-أبي- يريد تسميتي حسين، فقد تقرر أن يكون اسمي مركباً جبراً لخاطر القابلة.

ـ جميلة الحكاية..

الآن اكتشفت سخافة الحكاية بل وغبائها، ليس الآن فقط، بل كل سنين عمري التي كنت أحار فيها بين ذكر شوقي أو إخفائه، يلازمني دوماً إحساس بالذنب إن أخفيته، ويلازمني إحساس آخر بالذنب لو ذكرته وظنه الناس اسمي الثالث، واختلط علي الأمر، فكنت تارة أكتبه في أوراق رسمية وتارة أخفيه.

أشعر به دوماً شبح يسكن بيني وبين نفسي، يبزغ كل حين لأطالع وجهه القميء، يهاجم سكوني وطهارتي، يحرضني على أن أكونه، بل لعله ينبئني أني بإمكاني أن أكون أكثر من شخص، ويعلمني كيف أتلون كالحرباء، وأغير

من جلدي، بل وألفظ نفسي حيناً، إذا اقتضى الأمر، فهناك دوماً نفس أخرى قابعة في الانتظار، شخص بديل يمكن أن أدّعي وجوده ليتحمل عني أوزاري ، شوقي هو سنام الجمل الذي برز في حياتي دون رغبة مني، مُحيلاً أيامي للحظات متتالية من خداع النفس والغير على حد سواء.

وسألت أبي مرة أخرى ذات يوم بعيد: أين جدي عبدالله ياأبي؟ ولماذا لم يُكتب اسمه في شهادة ميلادي؟

فأجابني: أنت طفلي الوحيد المحظوظ في هذه الأسرة كلها، أنت الوحيد دون إخوتك جميعاً الذي يحظى باسم العائلة، عائلة الغرباوي

ـ ولكن عبدالله، أين عبدالله؟

ـ إنها قصة لطيفة سأرويها لك، لقد وُلدت يا عزيزي وقت أن كنّا مهجّرين من مدننا التي أصابها القصف، وأرسلت والدتك إلى العاصمة وهي حامل بك بينما حوصرت أنا في المدينة، وعندما فاجأتها آلام المخاض، قام خالك الطبيب بتوليدها، وأرسل أحد أصدقائنا ليسجلك بين المواليد، ولّما كان الصديق يعرف ان اسمي حسين الغرباوي فقد اسماك هكذا مباشرة ودون تفكير، محمد حسين الغرباوي.

ـ جميلة القصة ..

لم تعد القصة جميلة، بل عذاباً أتجرعه عندما ينظر لي موظف في شك كبير وأنا أقدم ورقاً شائهاً أدرك وحدي إثمه وإثمي فيه، لكني تعودت على استدعاء ابتسامات الثقة ونظرات التعالي، تولّدت بيني وبين كل سائل عن هويتي علاقة شر يجهلها تماماً ، بينما أحياها وحدي، أتنمّر باحثاً عن مخالبي إذا أباح بشكه، لأقر بسلامة كياني المتواطيء في جريمتي حتى النخاع، ناظراً في حدة إلى الأوراق مشيراً بإصبع ثائرة إلى صحتها وبيروقراطية الجالس أمامي يحاكمني، ويعلو صوتي متشدقاً بشعارات جفت وتشققت وتكسرت أحرفها على صفحات الجرائد، تشجب وتندد بروتين يحيل حياة المواطنين الشرفاء أمثالي إلى جحيم من الانتظار المهين.

لكن الأمر يختلف تماماً هذه المرة، أشعر باليأس يعصف بكل أبجديات دفاعاتي التي توطنت عليها، لم أجرؤ هذه اللحظة على إدعاءات اعتدتها، ولم يجعلني احتفاظي وحيداً بلقب العائلة شامخاً بالقدر المطلوب، فالعائلة لم تؤازرني يوماً في مواجهاتي، إنني مجرد رجل مُختلَف على هويته!

لعل ما فكرت فيه وأنا ناظر إلى فراغ الأيام أمامي جعل الدموع تطفر من عيني مما حدا بالرجل إلى إنهاء الموقف، وتزويدي بجواز سفر يحمل اسماً ثلاثياً، يخلو من شوقي، وعبدالله الذي لا يعرف به أحد، ويحمل هوية مبتورة لمن يُدعى، أنا.

أحاديث المقهى

ــ عظيم هو كل أمر ينسيني أمراً آخر، ذلك لأن ذاكرتي تتفوق على نفسها بمرور الأيام وأجدني أتذكر كل شيء، كل شيء، ربما هناك أشياء أُسقِطها من الذاكرة عمداً، وهذه مقدرة أمتدحها في نفسي، فأنا أنسى عندما أرغب في النسيان، أو عندما يُسكرني أحدهم، فأنا لا أسكر بإرادتي، وهو ليس نسياناً كاملاً، لكنه تجنيب لشيء ما في الزاوية البعيدة، وكأن ذاكرتي دولاب تصطف فيه الأشياء بحسب إرادتي، أو لنقل "غرفة دريسنج" كما تحب زوجتي المدللة أن تطلق على تلك المساحة التي كانت غرفة مجاورة لغرفة نومنا ولكنها جعلت منها دولاباً ممتداً منحنياً دائرياً عديد الأرفف والأدراج والأمكنة، ومنحتني منه نذراً يسيراً واستباحت لنفسها كل ما تبقى وذلك لأنها غير كل النساء، هكذا تصف ذاتها الرائعة دوماً.

ــ لبنى رائعة فعلاً

ــ نعم، أعرف ذلك، ولكن لأنني أنسى بصعوبة فقد اتجهت إلى تجنيب مسألة كونها غير كل النساء في زاوية بعيدة في ذاكرتي المتخمة جداً، فقد أثبتت لي التجارب مع الثلاث وعشرين امرأة اللاتي عرفتهن بعد زواجي

والتسع والثمانين امرأة اللاتي عرفتهن معرفة عميقة "متأملة" قبل زواجي أن النساء جميعهن سواء!! لكني أشهد لزوجتي بالذكاء النادر، فقد استطاعت أن توهمني بأني عبثت معها لدرجة الخوف على عذريتها ولهذا يتحتم علي الزواج منها، لا أدري هل تصادف قولها مع لحظة طيش مني؟ أم لنقل لحظة غباء.. لا يمكنني الجزم بأي شيء، فكم مررت بمثل هذه المواقف وكنت حاسماً، لكن الأمر اختلف مع لبنى، فقد مر كالحلم في حينه، حتى أنني قد نسيت التحقق من مسألة عبثي السابق معها في ليلة زفافنا، يقيناً لا أذكر ماذا حدث بالضبط، فقد شربنا كثيراً تلك الليلة والحقيقة أن تذكري لـ "نسياني" لتفاصيل هذه اللحظة المفصلية في حياة كل رجل، يجعلني في مزاج ثوري هائج، فأفعل بزوجتي ما يسعدها، وما يهديء من قهري الداخلي قليلاً.

لهذا يا عزيزي الصديق وصديقي العزيز تجدني أصف خداع زوجتي لي -وهو الأمر الذي أنساني أمراً آخر- بالعظمة الفائقة، وذلك لأني أقدر المرأة الذكية، وهي وإن فعلت ما فعلت، تستحق أن أمنحها اسمي لذكائها النادر

ـــ أنت مغفل كبير.

قالها أشرف في هدوء وهو يشد أنفاساً عميقة من الشيشة التي جمعتنا في ذلك المقهى الهادئ، ولم أغضب منه، فما كان يجب عليّ أن أذكر تلك

التفاصيل لأحد حتى لو كان لصديق عمري، لكني شعرت براحة بعدما أخرجت ذلك الدخان المكتوم بداخلي منذ زمن، لعلها الشيشة تطلق اللسان فأنا ما زلت غير معتاد عليها بعد.

لم يكن ذلك كل شيء، فما كانت الشيشة لتتركني بدون عقل، لذا فقد سألت أشرف الذي التقيته بعد فترة ابتعاد قصيرة عن أحواله، للحق كنت أريد منه اعترافاً، أي اعتراف بالمقابل.. كان يعز علي انفلات لساني في شأن دقيق كهذا الذي انطلق مني في لحظة تغييب، ربما كان سماعي لأي اعتراف منه أمراً جميلاً ومهدئاً لحالي.

ــ الأمور تسير معي جيداً، فقد تركت العمل في ذلك المستشفى البعيد الذي كنت أمضي وقتي كله في الوصول إليه، لقد كان يرهق يومي، وتشاركت مع أولاد عمي في مستشفى خاص كبير و أطمح أن يكون أكبر في المستقبل، لقد بعت قطعة الأرض التي آلت إلي عن أمي وشاركتهم بها، لم يكن هذا سهلاً فقد رفضت سلوى هذا الأمر بشدة لأنها كانت تحب أن يكون لدينا "عزبة" نذهب إليها كل حين، نوع من التفاخر الناشئ عن احتلال الأفلام العربي القديمة لعقلها السمين، إنها تخنقني يا رجل بتفاهتها لكن قُضي الأمر، لقد تورطت معها في طفلين، لا أدري أين ذهب عقلي لأتزوجها !! أتذكر يا ممدوح كيف كانت تبدو في الكلية؟

ضحكت طويلاً وأردت الرد على سؤاله لكن المرأة على ذمته، لذا فقد جاملته كثيراً ولم أدع الشيشة اللعينة تفسد ليلتنا، لكن الحق أن امرأته كانت سمينة أثناء دراستنا، وأذكر أني حذرته وقتها بأنهن يتضخمن فيما بعد لذا عليه أن ينال زوجة رفيعة ليتيح لها مساحة للتمدد، لكنه تورط .. يبدو أنها كانت سمة جيلنا، التورط.

استأذن أشرف للحظات ليقضي حاجته، فسهمت متفكراً بأنه ما زال الأحسن حالاً! وأنه لم يمنحني اعترافاً بالمقابل، تساءلت هل أذهب به إلى البار القريب لأُسكره!

اهتز هاتفه هزات خفيفة فلمحت على شاشته اسم المتصلة ورقمها بالأسفل، لبنى، لبنى، لبنى،،،

انتهى الإتصال، وجحظت عيني عند رؤية رسالة تحوي كلمة وحيدة في أعلى الشاشة: وحشتني.

اختنقت بالدخان المكتوم في صدري وأصابني سعال عنيف انتهى ب "شرقة"، لمحت أشرف يأتيني مهرولاً وآخرين يسقونني الماء ويضربونني على ظهري، كنت أحاول نطق اسمها، لبنى، متبوعاً بسُبّة، عندما فاضت روحي.

الدائرة

منحني القدر لحظة كي ألتقط أنفاسي بينما كنت أجري لأطارد الرجل تحت ضوء خافت من شعاع فجر لا يبين، فقد تعرقل الرجل في حجر وسقط أرضاً، لم أنتهز الفرصة كما هي عادتي بل وقفت للحظة، كان حري بي أن أنطلق في تلك اللحظة المشئومة كعدائي ألعاب القوى لأخطف السباق في اللحظة الأخيرة وأنتزع منه الفوز، أو الحقيبة الجلدية السوداء التي سبق واختطفها من جانبي منذ لحظات بينما كنت جالساً على المقعد المتشقق في انتظار الموعد، ولأني لم أفعل فقد اتسعت المسافة بيننا وكنت أراه شبحاً يجري كشعاع ضوء، وعندما أحسست بسكين حاد يمزق صدري من فرط المجهود المفاجئ، توقفت عن الركض، وسقطت أرضاً.

أحسست بضجيج مفاجئ حولي ولم أدر أين أنا للحظات أخرى، وعندما برقت الأحداث في ذهني حاولت النهوض ولم أستطع، كنت مستلقياً على أرض الحديقة الجرداء ومن حولي يمر البشر بلا مبالاة مستغربة، توقعت أن أجدهم يتنادون لإنقاذي لكن لم يحدث، فأغلقت عيناي لأتأكد أني خارج دوامة الكوابيس، وأعدت فتحهما فتأكدت من الأمر وغشيتني المرارة، ما بال الناس وقد تحولوا وحوشاً في زماننا هذا، ألا يثيرهم مرأى

رجل ملقى على ظهره يبدو عليه أنه يصارع الموت؟ الموت، هل سأموت حقاً ككلب ضال في حديقة عامة ؟!! هل هذه نهايتي التي لم أخطط لها أبداً على هذا النحو المهين؟!!!ا

أحسست بالشق في صدري يزداد اتساعاً فمددت يدي إلى جيبي وأخرجت هاتفي الجوال لأستنجد ببشر يعرفونني، فعلت، وأغمضت عيني لأمد أطول كثيراً حتى شعرت بصوت محسن صارخاً منادياً إياي، وأحسست بأياد تحملني وتمضي، أظنني في تلك اللحظة فقدت الوعي.

ـ لقد فقدت الحقيبة

كان هذا ما همست به لمحسن عندما فتحت عيناي في تلك الغرفة البيضاء، كنت يائساً يحاصرني الفشل، ربت الرجل على كتفي مواسياً:

ـ الحمد لله أنك بخير

ـ نعم، أنا بخير، لكنني فقدتها، ولا أدري ماذا فعل بها الرجل الذي سرقها، كم الساعة الآن؟

ـ الساعة الآن تقترب من الحادية عشرة صباحاً يا أخي، إنه الموعد تقريباً، قدر الله وما شاء فعل، ألا تتذكر هيئة الرجل؟

أشحت برأسي إلى الحائط الأبيض وشعرت بالدموع تسيل على وجهي، لقد كان رجلاً بائساً، لعله اعتقدها مليئة بالطعام الذي لم يذقه أبداً، لعله ظن

بها مالاً أو شيئاً يبيعه يأكل بثمنه، لقد دفعه الجوع لسرقتي، لا شك في ذلك

ـ لقد كان متسولاً

ضحك محسن ضحكة جوفاء و ربت على كتفي مؤازراً

ـ لا تحزن يا أخي، يمضي المرء في طريقه وقد ظن أنه نال كل شيء وملك كل شيء ولكن وكما تعلم إنها إرادة الله، ولعل هذه الحقيبة تأخذ طريقها إلى من يستحق رغماً عن إرادتنا جميعاً، ولعلك مسير إلى مهمة أخرى أجل وأعظم دون أن تدري، لا تؤنب نفسك ولا تبتئس.

ـ أين أنا ؟

ـ لقد حملتك لأقرب مستشفى، ولحسن الحظ كان بها نفر قليل ساعدوني بمجرد أن أتيت بك، تعلم أننا في حي بعيد.

سمعنا طرقاً على الباب في هذه اللحظة ودخلت ممرضة تؤدي مهمتها في صمت، وسمعنا طرقاً آخر ودخل رجل يرتدي أسمالاً بالية ومبتسماً ابتسامة هادئة، فانتفضت لرؤيته وهتفت الممرضة لأستكين في موضعي، لوح الرجل لي بالحقيبة وقال بصوت خفيض وهو يضعها على طرف الفراش: لقد راقبتك، وأتيت بها، لقد أغواني شيطاني لحظة لكني لست بسارق وعندها انفجرت الحقيبة في دوي مخيف.

شياطين صغيرة

هل كان بيتها؟ أظنه كان حصنها..

ذلك ما كنت أراه في تلك العجوز التي تسكن إلى جوارنا في تلك الضاحية الهادئة قرب شاطئ البحر، لا أدري لماذا ظل مشهدها يراودني دوماً وكأنها التصقت بعيني منذ طفولتي وكنت أتعجّب لماذا لا تكبر كما أكبر أنا؟ هل تخطت حاجز الزمن، تخطت حاجز الكبر وستظل هكذا محل نكاتنا وسخرياتنا في كل جلساتنا.

لم أسأم قط من مراقبتي لها من فوق سطح بيتنا المليء بالخردة والذي اجتهدت أمي مع كل سيدات العمارة في إسباغ القُبح عليه وتكديسه بكل شيء حتى صار مرتعاً للفئران، ولنا ، أقصد أصدقائي المجانين الذين كانت أمي تكرههم وتنعتني بالفشل لإصراري على صحبتهم، وعندما حلمت يوماً بسطح رائق به تكعيبة عنب وكرسي هزاز أرى منه البحر سخرت مني أمي كثيراً.

دوماً هي الأحلام تصحَبها سخرية العاجزين.

أما العجوز ، فقد كان لها بيتاً غريب المظهر وسط بيوتنا العالية، وغريب المظهر تعني برأي فتى العاشرة الذي كنته وقتها أنه كان ذا سياج، سياج

حديدي يلتف حول بيتها المكوّن من طابقين ، وكان لديها ممشى يمتد من السياج الأمامي و يحيط به من الجانبين أحواض للنباتات ، يغلب عليها نبات رمادي ، وريقاته تنبسط على ما حولها في بهاء قطيفي، أما قرب مدخل بيتها فهناك حوض صغير تملؤه نباتات خضراء قصيرة العمر، كنت أرقبها دوماً وهي تقطف منه كل حين شيئاً ما، بعض أوراق النعناع أو الرياحين التي كانت تزين بها طاولة كبيرة في منتصف صالة الإستقبال التي استقبلتني وأمي بها ذات يوم...

تظلل ذاكرتي الآن غمامة رمادية عندما أحاول تذكُر بداية الأمر، أحاول معرفة أي شيطان منّا كان صاحب فكرة إخافتها، ولكن هذا لا يهم الآن، ما يهم هو كيف سار الأمر.

بالطبع تسلقنا السياج الواطيء في جُنح الليل وتسللنا متفرقين في عدة اتجاهات، وبدأنا جنوناً لا حد له، كنت أنا المنوط بالدخول وإلقاء الكيس الغير مُحكم الإغلاق في ردهة البيت، وكان عليهم جذب انتباهها إلى الجهة الأخرى، فعل الشياطين ذلك كالإتفاق تماماً بإحداث أصوات مرعبة ولوح أحدهم بعصا مُرتدية زي خيال المآتة أمام النافذة المُضاءة، لمحت ظلها كالشبح يتحرك في اتجاه النافذة الاخرى فوثبت إلى الشرفة المُوارب بابها ودخلت بخفة قط، كان قلبي ينتفض بعنف وأنا أتلمس طريقي إلى الداخل،

ولمحت حينئذ المنضدة التي يتراص فوقها طاقم الشاي الذي شربت منه أمي، لا أدري لماذا انقبض قلبي وكدت أتراجع هارباً، لكني سمعت أصوات الرفاق بالخارج يحركون الأشجار القريبة بعنف لتُشكّل مع صوت البحر أعنف آيات الرعب، فخفت شماتتهم وتقدمت قليلاً.

فتحت الكيس وتركته في الظلام على أرض ردهة الإستقبال، كان هذا آخر ما أذكره عن تلك الليلة..

استيقظت صباحاً على صوت والديّ يتشاجران كالعادة، لعلهما يستأنفان مشاجرة الأمس.

ومر يومي باهتاً حتى التقيت الرفاق عصراً عند البحر، كانوا يضحكون كالبُلهاء فتركتهم وهرعت إلى بيت العجوز أتلمس الأخبار، مكثت طويلاً جوار السياج حتى ظهرت كعادتها تقطف الرياحين، ولمحتني فنادت لتبلغني سلامها لأمي..

عدت مطمئناً إلى الرفاق الذين خذلهم الخبر وأكدوا أن المؤامرة باءت بفشل، وبدأوا بالتفكير في مؤامرة جديدة..

لم يمهلنا القدر لإعداد تلك المؤامرة الأخرى، فبعد عدة أيام انطلق العويل من بيت العجوز

وارتدت أمي السواد لتعزي ابنتيها بينما جاء أحفادها إلى شاطيء البحر حيث أنفقنا الوقت في اللعب كعادتنا كلما زاروها....

أتذكر الآن ماحدث وكأنه فيلم بالأبيض والأسود، شريط مهتز يمر بخيالي، وذلك عندما التقيت حفيدها بعد انقضاء الأعوام الطوال أخبرني الرجل أنه لن ينسى أيام طفولته البعيدة البريئة ولعبنا معاً على الشاطيء.

وقادنا الحديث إلى جدته وبيتها الغريب، أكد لي أنه كان دوماً يخشى البيت وردهاته الباردة التي قد تختبيء في اركانها الحيّات، أكد أنه كان على حق، تذكرت الكيس الذي كان بيدي يوماً بعيداً وكيف أكد لنا البائع أن الحية منزوع سمّها، وارتجف جفني.

استطرد الرجل في حكي تفاصيل كثيرة، وتركني في النهاية وهو يؤكد أن جدته قضت نحبها بلدغة ثعبان.

رهاب الحلم والواقع

لم يكن صياداً، بل موظفاً عمومياً إن كان هذا الوصف مازال قائماً، لكنه يسلك الطريق الطويل المتعرج الذي يصل بين بيته المتواضع وضفة النيل البعيد كل يوم وقت العصر، حاملاً صندوقه الخشبي وكيس بلاستيكي يحوي زاده القليل، وهناك في تلك البقعة المتوارية عن القصور الوارفة يقوم باختيار مكان جلسته ويُعمل يديه في سنارته وتعليق ما يشبه الطعم في طرفها، يطوحها في الهواء عالياً ثم يراها تستقر في الأعماق وينتظر.

يأتيه بعد قليل كوب الشاي من العجوز البعيد مع ابتسامة صغيرة لا يكاد يتبينها، فيشير بيديه للعجوز محيياً وينفح الصبي شيئا من حافظته.

لم يكن صياداً.. ولم يكن يصطاد، بل إنه لم يرغب يوماً في إخراج سمكة من تلك المياه الداكنة.

إنه فقط يجلس منتظراً، ولم يسفر الأمر أبداً عن سمكة، لم يزد عشاؤه في يوم من الأيام عن شرائح سمكة التونة المحفوظة. وظيفته ترتيب الأوراق المنتهية الصلاحية في إدارة الأرشيف، قلما احتاجه أحد، وقلما انتبه لوجوده أحد، بلا رئيس وبلا مرؤوسين في ذلك المكتب الرطب وحده، حارس على

الأوراق وحشراتها، بعد ان انتقلت صوراً منها الى الحواسب، وصار الأصل نسياً منسياً.

لم يكن عمله حقيقياً، كان حضور كانصراف، أو إبحار في يم يهلك أيامه بلا طائل، ولم يكن بيته حقيقياً، كان بيت مؤجر ببناية قديمة، تطالعه أحذية المارين في الحارة الضيقة عندما يطل من شبّاكه الواطيء.

ما الذي كان حقيقياً فيه؟! لا يمكن التكهن بذلك.

تطول جلسته حتى يوشك النيل على ابتلاع الشمس في أحشائه، أو بالأحرى تبتلعها تلك القصور الوارفة على الضفة الأخرى، لكن ذراعه يهتز بعنف لأول مرة ويدرك أن هناك صيداً علق بسنارته بلا طعم حقيقي، يتعجب، لقد أمضى وقتاً طويلاً ليصل لتلك البقعة الخاوية من أي صيد.

يقف حائراً، خائفاً، ينظر حوله كأنه يستنجد بأحد ما يؤازره في لحظة حقيقية لم يمر بها من قبل، يشعر بثقل السنارة وتلاعبها بين يديه، يطيل الحبل ولا يجذبه إليه مانحاً صيده فرصة الإفلات والنجاة، يزداد الثقل على ذراعه النحيل فينقل السنارة من ذراع إلى آخر آملاً في انفلات الصيد ونجاته من الموت.

يشعر بثقل ماء النيل كله يرتكز على طرف سنارته، يوشك ان يفلتها ويُلقي بها ، ولكنه يثبت للحظات، وتتشبث قدماه على الأرض فيشعر صيده يحاوره، ولا يجد بداً من لف الحبل تجاهه في قوة لم يعهدها بنفسه بعد أن شعر بأن الصيد يكاد يجذبه ويلقيه في الماء.

يخرج الصيد إلى الهواء، لا يتبينه، فقط يجذبه إليه بعد أن بدأ الظلام يتسلل إلى المكان، يقترب الصيد ويدركه الرجل، يبتسم، يضحك، يقهقه عالياً وهو يسحب الصندوق الحديدي العالق، يتلقفه بين يديه ويضعه على الأرض الطينية بين قدميه، يداعب القفل الصديء بقدمه ويسهم طويلاً، يفكر عما قد يحتويه، يبتسم مجدداً ابتسامة باهتة، لعلها ابتسامة زاهدة.

ثم ينشغل الرجل في فض الإشتباك يين سنارته والصندوق، وينجح في ذلك ثم يطوي سنارته في مكانها بعناية ويتناول كيسه البلاستيكي ويرحل، ملقيا نظرة لامبالية على ما حملته إليه المياه الداكنة..

العجوز

موغلة هي في القدم، تأملتها ببعض من العطف دفعتني إليه انحنائتها وهزالها الشديد، لم تكن من أقاربي فعائلتي لا تضم معمّرين، ولكني التقيتها في بيت أحد الأقارب جدة لأولاده، تسابق الجميع لتوصيلها إلى مقعدها بجواري، مما حدا بي لقضاء الأمسية في تأمل السنين المحفورة على ملامحها، عينان تومضان ببريق حياة ماضية وتنطقان بأنها في وعي آخر غير الذي يجمعنا في هذا البيت، لفتت انتباهي رعشة الأيدي الخفيفة وقادت اهتمامي إلى عروقها الظاهرة وشدة هزال جسدها، ربما كانوا تسعين عاماً أو تزيد قضتهم هذه السيدة في دنيانا، هكذا فكرت وأنا أطالع غيمات عينيها وتراكم السنين فوق أظافرها.

همست لي : لماذا لا تأتين لزيارتي دوماً؟ إنني لم أعد أغادر البيت إلا قليلاً لعلها تظنني أحد آخر، فأنا لا أزورها عادة، لكني همست لها بأنها مشاغل البيت والأولاد.

فسألتني: هل لديك أبناء بخلاف هذا الولد؟ أجبتها باسمة: لدي ابنة أخرى.

بدا لي وكأنها لم تسمعني، فقد قالت لي بعد لحظة: الولد الوحيد مشقة، مازلت صغيرة، انجبي له أخاً أو أختاً.

ربتّ على كتفها وأجبت: إن شاء الله

حاولت البحث عن كلمات تنسج حوار تفرضه ظروف جلستي بجوارها ولكن الأمر استعصى على خيالي، كل الكلمات بدت جديدة ولامعة ولا تليق، شعرت أنني من عالم آخر، أو أنها من غادرت عالمنا! لا أدري ساد الصمت وهي تنظر نظرة ثابتة في اتجاه واحد فأيقنت أنها قد ذهبت من جديد إلى وعيها الآخر، ربما إلى زوج وأولاد كانوا معنا يوماً وملأت معهم الدنيا ضحكاً وبكاءاً وخلافاً واتفاقاً، جعلتني بصمْتها انسج حولها حكايا أُسلي بها جلستي بعد أن تباعد عني الآخرون، رأيتها في ثلاثينيات عمرها أي في خمسينيات القرن الماضي ترتدي تلك الفساتين الرائعة وتدور في رقصة بين يدي شاب ربما أصبح زوجها فيما بعد، ورأيتها على شاطيء البحر، تجلس تحت مظلة وبيديها النضرة كتاب وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش يتطاير من تحتها خصلات شعر أسود، ورأيتها...

ــ لماذا لا تأتين لزيارتي دوماً ؟ إنني لم أعد أغادر البيت إلا قليلا

ــ.....

ــ هل لديك أبناء بخلاف هذا الولد ؟ ما زلت صغيرة، انجبي له أخاً أو أختاً.

لعلها تظنني أحداً آخر غير الذي كنته منذ دقائق، تساءلت، هل أصبح التواصل مع الحياة بالنسبة لها هو ترديد هذه الجمل، هل حقاً تعي أي شيء، أم هي لحظات وعي متفرقة لم أصادفها بعد في لقائي معها، ظلت عيناها تبرقان بوهج بعيد، لعلها ذكريات تحاول اختراق طبقات النسيان المتراكمة، وما زلت أنا أتأملها.

يوم في حياة صابر

ـ اصحى، فوق.

ـ تمام يا فندم.

صرخت بها وأنا أضرب الأرض بحذائي الغليظ واضبط وضع سلاحي على كتفي، يدي ترتفع تكاد تصفع رأسي وتهوي إلى جواري في حزم. يذهب الباشا، وأبقى كالصنم في مكاني، كم ساعة لبثت واقفاً هنا؟ لست أدري، أعرف طبعاً أن أجيب لو سألني أحدهم عن الساعة، علمني ذلك الحاج فاروق حلاق قريتي، وأهداني أخي سليمان ساعة جديدة عندما نجحت في الإبتدائية أخفيها تحت أكمامي، لكني لا أستطيع الحراك الآن، الموكب على وشك الاقتراب، يمر الباشا كل فترة ويزعق بهذا :ـ

ـ الموكب قرّب، انتباه يا ولاد الـ***

ـ تمام يا فندم

في الصباح الباكر، وعندما جاءت بنا العربات من الوحدة، كانت الشوارع هادئة، والأشجار المحيطة بنا تمتليء بالطيور التي تستعد للانطلاق، شاهدت هذا من شباك العربة الصغير قبل نزولي، ولكني منذ أخذت مكاني لم التفت، أشعر ان المكان من حولي جميل، هل يمكنني الالتفات قليلاً.

هذا "علي الشبراوي" يقف بعدي، إنه لا يراني، لعله نائم، سيجيء الباشا الآن ويفزعه " ضحكت دون أن أهتز "

كم هو رائع هذا الشارع وهذه البنايات الشاهقة، يا إلهي، عالية جداً، ويبدو لي من فوقها ، ما هذا ؟ هل نقف بالأعلى أيضاً ؟ الباشا موسوس جداً، ما الذي يمكن أن يحدث، ومن يجرؤ على مهاجمة الباشا الكبير جداً ؟ ولماذا يهاجمه أحد من الأصل؟ أليس هو ولي أمرنا وراعينا وحامينا كما يقولون ؟ لماذا إذن؟

ـ اثبت ياعسكري

ـ تمام يا فندم

يا إلهي، ماذا كنت أفعل؟ هل كنت أحك جلدي؟ أم أتثاءب؟ لعنة الله على التفكير الذي يدفعني للغفلة.

الباشا يقترب، أشعر به يقترب، استر يا ستار.

ـ أيوه يا باشا، كله تمام.

الحمد لله، اللاسلكي أنقذني، ماذا كنت أقول؟ نعم ، الحر شديد جداً اليوم والعرق يخرج من كل أجزاء جسدي وكأني أُعصر، أتذكر الآن البلد وجوها العليل"بلدنا حلوة"، وكلها خير، وناسها طيبون، ولكنهم غلابة

يستكينون كلما زعق أحدهم مثل الباشا، يخضعون للغفر ولشيخ البلد وللعمدة وللمأمور، وهؤلاء لابد أن يكون هناك من يخضعون له من الكبار، الحياة كلها درجات، وليس عيباً أن أكون في أول السلم وخاضع للجميع، ليس عيباً.

الملح بدأ يتراكم تحت ملابسي ويلدغني كلدغ النحل، أود لو ألقي بهذا السلاح وأركض عارياً في الشارع، سيقتلني الباشا بالرصاص" قهقهت بدون حركة"، الناس من حولي يتحركون، عدد قليل جداً من الناس فالموكب لا يمر إلا في الشوارع الخالية، احتياطات أمن، هكذا يقول لنا الباشا. ولكن هناك سؤال يداهمني دوماً، كيف أتصرف إذا وجدت خطراً؟ وسؤال أخطر، كيف أشعر بالخطر وانا لا يمكنني الالتفات ولا أستطيع النظر إلا أمامي مباشرة؟ ماذا لو جاءني احدهم من الخلف وطوق عنقي وأرداني قتيلاً؟ ماذا سيحدث للباشا الكبير جداً حينئذ ؟ والله سأحزن عليه.

ـ اصحى يا خويا، أنت نايم، قدامي على الصف.

لسعني الباشا على قفاي، لكنها "حاجة بسيطة" ، ضاع الألم لأني تحركت أخيراً، اهتف معهم وأنا أقفز في الصف هتافاً لا أفهمه، لكني ابتسم، فالباشا الكبير جداً غير اتجاهه، أو ربما غير رأيه، واستراح اليوم في البيت.

لـــي لـــي

يقول عبدالله أنه لا يصدق روايتي تلك التي رويتها له على الماسنجر، يقول أنى أبالغ وأنى ما كان يجب أن أدّعي، دوماً عبدالله غير مصدق، حتى أن صورته الرمزية في منتدانا المشترك هي حاجبين مرتفعين!! لقد تعرفت عليه من وراء الشاشات فقد كنا عجائزاً متطورين في زمن لا يصح فيه التوقف عند زاوية ما والتشبث بها، كان شاعراً، حساساً ودافئاً، كان عاقلاً بحكم كل شيء ولكني كنت أحس به جنون طفل في بعض الأحيان.

وعبدالله في الحقيقة له أيضاً حاجبين مرتفعين، لكن يشوبهما بياض كثيف، قلت له ضاحكة عندما التقينا في جمع من أصدقائنا المشتركين أول مرة:

- أحب حاجبيك الآخرين.. إنهما أكثر شباباً

فأجاب وهو يحركهما ضاحكاً:

- لكنهما ثابتان، ليسا كهذين، يمكنني أن أغازلك بهما

أظنني ضحكت كفتاة صغيرة لكنني قلت له ممازحة:

- مغازلة قديمة.. أنت عجوز حقيقي.

لم يصدق عبد الله أن حفيدتي "لي لي" عادت بعد عيد ميلاد صديقتها لتحكي لي ما حدث بهذه الجرأة، لقد استغلق الأمر على فهمه وطلب مني إعادة قول الجملة، فوجدت نفسي أكررها له وهو يطلب مجدداً إعادة القول، لقد مللته وأغلقت الكمبيوتر، فأتاني على الهاتف ليسألني:

- هل صحيح أن لي لي فعلت أمراً مع شقيق صديقتها؟ هل تعرّت أمامه؟

فقلت له وقد فزعت بعد سماعي الجملة تتكرر:

- نعم.. هذا ما حدث

- وماذا ستفعلين؟

- فيم؟

- فيما حدث، يا إلهي، هل أخبرت والدتها أم ليس بعد؟

- ولم يجب علي فعل ذلك؟ إن الصغيرة تعرف ما تفعله، إنها أكثر فهماً مما كنت أظن..

- ما الذي يعنيه هذا بالله عليك؟

- يعني أنها حكت كيف أنها وجدت نفسها تريد فعل هذا ففعلته، ولكنها احتاطت للأمر فلم تتنازل عن بكارتها.

- وهل بعد العري بكارة تبقى؟

- نعم هي بكارة صورية تتوهم أنها كل ما يجب الحفاظ عليه، بل إنها لا تنوي إتباع ما يجب ومالا يجب، أخبرتني بذلك لتوها..

- وما الذي يعنيه ذلك أيضاً؟

- يعني أنها ستمنح بكارتها وقتما تشاء لمن تشاء بدون أي قيد أو شرط، إنها لا ترى البكارة ميزة ما أو دليل عفاف، وهي محقة، ألا ترى أنها بكر بلا عفاف الآن؟ يا إلهي فلنغير الحديث؟ أظنها أزمة السكر ستعاودني

- بالله عليك لا تتركينني قلقاً عليكِ، فلتهدئي يا ليلى، نعم لنترك هذا العفن بعيداً، لا تجهدي نفسك واستريحي

- أنى لي أن استريح!!! إنها تسهب في حكي طرق الحفاظ على البكارة قائلة إنها متعة رائعة، هذه الفاجرة الصغيرة، إنها لا تراها غير شريط أحمر يغلف علبة من الحلوى، ما أجمل أن تمتد اليد لتأخذ الحلوى دون فض الغلاف!

- كفى.. بالله عليكِ إنني من يرفض الآن المضي في هذا الحديث، أشعر أني سآتي لأقتلها، يكفي ما سببته لكِ من ألم..

- لعل والدها البعيد يفعل يوماً.. لعله يعود ليرى نتاج غربته.. ولو أنه في آخر زيارة أعمى عينيه بيديه ليحجب عنهما ضوءً كالنهار، ليذهب بضمير مرتاح لجمع المال.

- حزينة أنت يا عزيزتي.. أعرف هذا.

- لا.. لست حزينة، إن كل شيء يتغير، كل شيء، لدرجة أنني أشعر أني سأشهد نهاية الدنيا قبل مماتي، وقد اعتدت التغيير لدرجة الملل، لدي حكايات أكثر بشاعة عن صديقاتها، المذهل أنها تحكيها بعادية شديدة، ليست نابعة عن جهل، لكن عن تعوُد ولامبالاة، إنني لست حزينة، ولا ألقي بمسئولية على والديها، إن كل شيء يقود إلى هذا.

- فخ المقارنة يرحب بك، لطالما وقعت في هذا الفخ مع أولادي وأحفادي، ولطالما أرّقني أيتها العزيزة لكن ما ترونه يفوق خيالنا العتيق

***

تزوجني عبدالله في ليلة هادئة، تزوجنا بعد أن طاردني طويلاً ونحن الاثنان نربت على سنوات عمرنا الطويل، وتركت بيت ابنتي وحفيدتي وعدت إلى بيتي.

عبدالله كان أرملاً لسنوات طويلة مثلي تماماً، عندما وجدني عبر الأثير الجديد أوقعني في غرامه، بل أوقعته في غرامي، بل هو غرام العقلاء ما جمعنا، أحببته الحب الأخير، ذلك الحب الذي لا يتوجه غير العقل والسكينة.

كان جميلاً ان أنفض عن كاهلي كل أنواء الماضي، وأوجاع الحاضر، وقلقي على المستقبل القليل.

***

لقد مات عبدالله بأزمة قلبية داهمته بينما كان في فراشه، مات ميتة هادئة، وحزن عليه الجميع حزناً شديداً رغم أنه لم يعش بيننا طويلاً كفرد في أسرتنا.

حزن الجميع ولقبوه بالملاك.

فقط أنا ولي لي كان حزننا غريباً، وصامتاً، فقط أنا وهي كنا نعلم الحقيقة.

نعلم أن قلبه الضعيف لم يحتمل عندما فاجأتهما، بينما الفاجرة الصغيرة تذيقه بعض الحلوى.

المصاغ

أخبرت السيدة أنني بحاجة إلى كوب من الماء، كان طلباً عادياً ولم تكن لتشك أبداً في نواياي، وكنت مضطراً إليه، أجل كنت مضطراً إلى ذلك بعد أن لاحَظت وجودي في الجوار.

لم أكن أفضّل أن تراني المرأة القروية الجالسة في صخبها الريفي على "دكة" وسط طفليها أمام البناية، ولكنه ما حدث.

لم تتحرك، ولكنها قالت: أمرك يا باشا، وطلبت من ولدها أن يأتي بزجاجة ماء من الثلاجة.

وضعت كفي على صدري وكأني أعاني تعب ما يمنعني من السير لآخر الشارع لأحظى بزجاجة مدفوعة الثمن من أي متجر قريب، أردت أن أكون عادياً جداً، ولكني كنت أرمق كل شيء وكأنني تلك الإضاءة الباهرة في ماكينة تصوير، وكأنني "سكانر"، مسحت بعيني السلالم والمصاعد والمدخل الرخامي وأصص النباتات ولوحة الإعلانات وحجرة المرأة الجالسة -أو هكذا أظن- وعدادات الماء والكهرباء، وقطة عابرة.

كان أهم شيء هو تلك الأسماء التي تراصت بجوار أزرارها لتشير إلى كل ساكن حيث يُجيب الرنين ليلبي صوت زائره، استندت على الحائط بجوار اللوحة وأخرجت منديلاً ورقياً وضعته على فمي وبدأت في السعال وتتبعت بعيني السلك الذي يصل هذه اللوحة بالكهرباء، كان على هذا السلك أن يموت.

السعال المفتعل يؤدي إلى سعال حقيقي!

نعم، وكذلك كل شيء، كل شيء.

الحب المفتعل، والصدق المفتعل، العلاقات المفتعلة.. الأبوة المفتعلة، حتى المرض!

تناولت الزجاجة الباردة من الصغير وربت على رأسه، ثم تذكرت أنني عادة لا أفعل ذلك، هل أنا الآن مُفتعل أم أن هناك شيء ما تغير؟

لا، لست كذلك الآن، الحق انني لم أكن على حقيقتي قدر ما أنا الآن! نادم.

أنا نادم حتى قاع تلك السعلة القادمة من أعماق صدري، بل نادم حتى آخر قطرة دماء في صدري تناديني لأتوقف عن هذا السعال الفاسد.

استدرت بينما كنت أشرب لأجول بنظري قريباً من الأسماء، السيدة "شيرين شهاب الدين" الدور السادس، ستمائة وأربعة، كنت أبحث بعيني عن اسم آخر هو لزوجها رغم انها المعنية بالأمر ولكن يبدو أن المرأة كتبت اسمها على باب بيتها لأنها الآن بلا زوج كما عرفت.

كل شيء يسير في مجراه وكما أردت، ليس تماماً في الحقيقة بعد أن لاحقتني نظرات زوجة البواب واضطررت لافتعال هذا المشهد الرديء، لهذا لابد أن أجيء غداً بشكل مختلف، أرتدي نظارة شمسية شعبية الطابع وقبعة لأداري شعري الزاعق البياض، وربما لحية أو شارب، مهلاً أين سأجد كل هذا؟!

شكرت المرأة وحاولت منحها جنيهات قليلة بدون أن يعلو صوتي، حاولت أن أكون هواءاً عابراً بلا بصمة ولا أثر، لكن المرأة رفضت، فتمتمت شاكراً ومضيت إلى حالي.

لن أذهب إلى البيت بالطبع، إنه الآن ينتظر هناك وربما نتأذى برؤية أحدنا الآخر، ربما انهلت عليه بكل حنقي وآذيته، ربما دافع عن نفسه وحاول أن يقاومني، قتلتني الفكرة فهززت رأسي أطردها بعيداً. أتخيله جالساً في خوف كالجرذ، وأحياناً أتخيله شيطان لا يأبه لشيء، وبل ويندم على ما اعترف به..

اخترت أن أنام في السيارة، عقاب أستحقه لإخفاقي في.. في كل شيء، في الحياة بصفة عامة. ما أنا فيه الآن هو إخفاق كبير لا ولن يداريه شيء.

يجب فقط أن أتم ما عقدت عزمي عليه.

كان علي الذهاب إلى أحد شوارع وسط البلد والسؤال عن دكان "فخري" لأحصل على شارب ولحية، هكذا أخبرني "سيد" في مكالمة مفتعلة سألته فيها عن ذلك وسط حديث طويل امتلأ بالضحكات والسباب، أخبرني في نهايته أنه سيلقاني على القهوة غداً مساءاً ولم أمانع بالطبع.

أعددت كل شيء، ثم أوقفت السيارة بجوار أحد المساجد استئناساً، وعندما سمعت آذان الفجر ذهبت للصلاة!

كيف سمحت بحدوث هذا بحق صلاتك؟ همس لي شيطاني بينما أصلي فاستعذت.

أنهيت صلاتي والتفت إليه- شيطاني- متحدثاً في صمت: نعم أيها الحقير، نحن نرتكب المعصية ثم نصلي، نرتكب الكبيرة ثم نصلي، نظلم وننهب بل ونقتل ثم نصلي، نهمل أحبائنا ثم نصلي، نرمي فلذات أكبادنا في لجة الحياة بلا عون ثم نصلي، ألا يخبرك هذا الترتيب عن شيء اسمه التوبة أيها الأحمق؟!

أجابني: لقد بدأت بالصلاة الآن.

فتفلت عن يساري وأنا أقول: بل بدأت قبل ذلك بسنين طوال وأنا الآن أصلي، أصلي، أراك فقدت أنيابك، إنني أخفقت.

ذهبت ممسكاً بحقيبة الأدوات البالية، ثم اقتربت من البناية في خطى واثقة فتلقاني البواب : خير يا حضرة مين أنت؟

- سباك مطلوب في الدور السادس عند الست شيرين.

أجابني وهو ينظر إلى لوحة الأسماء الميتة بأن أصعد ، ثم تمتم بغلظة : وماله سباك المنطقة، لا مؤاخذة يعني لكن كل منطقة أولى بعمالها !

فأجبته بكلمة واحدة: أرزاق. وصعدت مسرعاً قبل أن تلمحني امرأته التي علا صوتها بالداخل تنادي ولدها.

فتحت لي السيدة شيرين التي أخبرتها بالطبع أن البواب أرسلني لأن الماسورة مسدودة في الدور العلوي وعلي أن أسرع في العمل قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

أشارت إلى الحمام بطرف إصبعها الصغير، فقد كان الكبير وصاحبه مشغولين بسيجارة صباحية، وقفت للحظات ترقبني على باب الحمام وأنا أخرج أدواتي من الحقيبة الجلدية القديمة ثم قالت أن علي أن أسرع لتلحق بمواعيدها.

أفضت في الإعتذار، كنت مهذباً جداً ورائقاً كنهر، لابد أني لم أثر أية مخاوف لديها فسألتني هل أشرب الشاي؟ وبالطبع أجبت بنعم، وأتبعتها بكليشيه محفوظ: تقيل سكر زيادة لو تكرمتي.

عادت بعد لحظات لتجدني على حالي، منحنياً، وبعض المياه تحيط بي.

أخبرتها أنني سأنتهي في دقائق، فقط عليها أن تناولني ممسحة.

لم تنتبه لذعري وارتجافة يدي، لم تنتبه لحبات العرق التي تكونت على جبهتي، أو ربما انتبهت وظنت أنها نتاج انحنائي، لم تتخيل أن كهل مثلي يمكن أن يعبر الممر على أطراف أصابعه وهو يحمل صندوقاً صغيراً يحوي شيئاً من مصاغها، ليعيده كيفما اتفق وسط خزانة ملابسها.

تناولت كوب الشاي الساخن شاكراً وسمعتها تشكر عملي واختلافي عن السباك الآخر، ابتسمت وأنا أخبرها انني موظف محترم، ولكني أحب الأمر كهواية، وأن كل فرد في أسرتي له هواية تدر عليه ربحاً.

نظرت إليها مبتسماً واستطردت: ابني الأكبر مثلاً يحب جمع الطوابع، ولم تسمعني وأنا اهمس من بين شفتي: وصناديق مصاغ الوحيدات.

ولهذا سألتني وهي توصلني إلى الباب: اسم حضرتك إيه؟

فنظرت لها نظرة طويلة حائرة، ثم قلت: نوح.. نوح عبدالله.

المصور

كنت في السابعة عندما أهداني خالي القادم إلى زيارتنا من الخارج تلك الكاميرا التي تسقط الصورة مطبوعة ملونة، سميكة، مختلفة عن عمل أي كاميرا أخرى. سعادتي بلا حدود وأنا أتلمسها وأمسح عدستها، وأنظف كل قطعة فيها، حتى صندوقها الورقي لم ينج من اهتمامي الزائد.

كانت الكارثة يوم أردت شراء فيلم لها ولم أعِ أن مدينتنا الصغيرة ليس بها محال تصوير كبرى أو مكتبات يمكن أن أشتري منها مرادي، كان الباعة في ستوديوهات التصوير الفقيرة في الجوار يقلبون الكاميرا بين أيديهم متعجبين فأكاد أخطفها حتى لا تتلوث أو يصيبها عطب، أو.. تسقط!

في عيد ميلادي الثامن ذهبت إلى مصر/القاهرة مع خالي الأصغر وخالتي وهناك اشتريت مخزوناً للكاميرا يكفيني لعام، ثم عدت كمحمد الفاتح، بل أنا محمد الفاتح نفسه فقد ضممت لامبراطوريتي "ألبوماً" لأضع به صوري.

- يكفيني منك صورة في الشهر..

قالتها أمي عندما أنهيت فيلماً كاملاً على تصوير وجهها من كل الزوايا، قالتها لتمنحني حرية تصوير أشياءاً كثيرة، ولأصنع ذكرياتي.....

كنت في التاسعة عندما كررت العبارة مرة أخرى " لتصنع ذكرياتك"..

فهمت وقتها كيف أن الذكريات يمكن صنعها وفهرستها وترتيبها، ولهذا صار لكاميرتي معنى أقوى، ولألبومي قيمة أعظم.

وجاءت الفكرة، سيكون الألبوم أرشيفاً لأمي.

لم ينقض شهر من دون تصويرها، صورة واحدة كما أرادت أودعها كل خبرتي المتزايدة في علم التصوير، وكانت تفرح بكل واحدة لحظة سقوطها من الكاميرا، تضحك.. فآخذ الصورة لترقد بجوار إخوتها في "ألبوم أمي"

والدي؟ لم يكن له ألبوم، أو صورة، أو أي وجود.

كنت لأمي وفقط، بلا أعمام أو عمّات، وكان رد أمي الهزلي أنها كالبكتريا أنجبتني بالإنقسام –يبكيني، كنت أعلم بأمر طلاقها السريع وكأنها سيجارة فرغ والدي من تدخينها فألقاها، عرفت بالطبع من خالتي الثرثارة ولكني كنت في شوق لمعرفة الرجل، مجرد المعرفة.

***

الآن عمري أربعون عاماً، أجيد حلاقة رأسي تماماً بالموسى لأمنع ظهور الشيب، خرجت من شركتي الخاصة وتركت شريكي معتذراً، وخطوت داخل "الكافيه" البعيد لأول مرة، قال أنه يجلس دوماً فترة الصباح في هذا المكان بعد خروجه منذ سنوات على المعاش.

لم يكن هناك شوق، كان فقط فضول تملّكني فبحثت حتى وجدته، والدي-العزيز/ الهارب.

أستطيع أن أؤكد لنفسي ولأمي ولأبنائي الذين سأحكي لهم عن هذا اللقاء فيما بعد أنني لم أكن عاطفياً، ولا منفعلاً، بل متجرداً من كل المشاعر، كنت كالروبوت.

وضعت حاجياتي الكثيرة أرضاً، كانا صندوقين صغيرين، وجلست ووتبادلت معه أطراف حديث جديد، واحتسينا القهوة معاً. أورثني حب القهوة المرة.

ثم أخرجت الكاميرا الخاصة بي والتي اشتريتها من آخر رحلة إلى الخارج أنا وزوجتي والأولاد، إنها الكاميرا الرقمية الحديثة التي أنتجتها نفس الشركة القديمة بتقنية أحدث، تطبع صوراً لحظية تخرج كالسيف من جانبها بلا سقوط مروع كالسابق، أخرجتها بعناية من جرابها الجلدي الأنيق، واتخذت وضع التصوير والتقطت له صورة، فضحك وظهرت تجاعيده كاملة، الشكر للكاميرا الحديثة بالطبع.

تناول والدي الصورة ونظر فيها ثم شكرني وهمّ بوضعها في جيب سترته لكني تناولتها منه وقلت: اسمح لي..

- اسمح لي أن أريك أشيائي الصغيرة التي قد لاتعني لك شيئاً البتة.

وفتحت صندوقي الأول وأخرجت منه أول ألبوم لأمي، وبدأت أعرض عليه اثنتي عشرة صورة لكل عام، ثلاثون ألبوماً شاهدهم صامتاً، وأنا أريه آثار الأيام على جبهتها، وحول عينيها ، وفي زاويتي فمها، تجاعيد تتزايد لا تخفيها الضحكات بل تظهرها أكثر فأكثر، أخبرته مع كل صورة كيف صبرت وعانت لكي أكون.

لم يحتمل رؤية صندوقي الثاني لنهايته، ذلك الذي يضم صوري الشخصية، ثلاثون ألبوماً ضموا مشاهد حياتي جميعاً، لم يحتمل..

في نهاية اللقاء الوحيد أخرجت ألبوماً فارغاً وضعت به صورته الوحيدة وقلت: هذا كل ما أعرفه عنك، والدي العزيز.

الضفة الأخرى

أذهب إلي غير بعيد،إلي الضفة الأخري من النهر، يحملني قارب قديم متشقق أكلت المياه دهانه الملون ونقوش رسمها أحدهم ربما كانت كلمات، أنا لا أعرف القراءة..

انظر إلى صفحة الماء فأرى وجهي بغمازتيه يهتز، أمسك بالحبل الذي كلما أصابه البلي ضمده أحدهم بقطعة أخري، كثيرة هي تلك العقد بطول الحبل وعرض النهر.

يظن الناس علي جانب النهر أنني ساحرة، يقصدونني شاكين آملين في حجاب، يجلسون في حوش بيتي فلا أقدم غير الصمت وبضع تمرات أهز النخلة المجاورة كل عام ليتساقط الزاد يحييني، أقدم لهم ذلك الصمت الموحي، فيخافون ويحاولون تقديم الهبات فأمتنع/ أحاول الإمتناع، هباتهم دجاج مذبوح وخبز ساخن وملح، أبتسم وأنا أحصيهم عقدة بعد عقدة لأعبر، والتفت خلفي لأري بيتي الذي ورثته عن أمي في الجوار الخصب، ورثت عنها ثيابها السوداء الفضفاضة، والصمت الذي به يخاف الآخرون أكاد أصل، أطأ بقدمي الأرض الموحلة واربط القارب وامضي إلى الأرض

الأخرى التي لا يقول فيها الناس أني ساحرة ابنة ساحرة .. إنهم لا يكادون يرونني، هكذا أظن..

اتجه كعادتي في هذا اليوم إلى السوق القريب لأشتري الخضر وأحملها علي رأسي لسيدة البيت .. وأرقب الطفلة ذات الغمازتين تلعب في سعادة بدراجة في غرفة واسعة نظيفة .. أنظر للسيدة في امتنان وأذهب.

أجلس بجوار النهر منتظرة عودة القارب من الضفة الأخرى .. كم أكره "هناك"، أكره تلك الضفة التي يخشاني فيها الناس، تمنيت لو صرخت وأخبرت الجميع أني امرأة، عادية.

أرى القارب يهتز وحيدا هناك .. لا أحد يأتي..

لو أن أمي لم ترتد السواد الفضفاض والصمت عندما هبطت علي تلك القرية من المجهول حاملة إياي في لفافة مهترئة، لو أنها تحدثت! لو أنها جادلت وباعت واشترت لما كان هذا حالي الآن.

أعبث بعود جاف على الأرض المتربة، أرسم طفلة ودراجة، طفلتي اللاهية في البيت النظيف هُناك.

رغم أني ارتديت السواد كأمي لكن لم يمنعه خوفه أن يجثم علي صدري ويقبلني كاتما صراخي تاركاً بداخلي شيئاً صغيراً أجدت اخفاءه

***

القارب يتحرك قادماً، أللم ردائي لأذهب، وأطأ الأرض الموحلة لأتسلم الحبل البالي من فتاة جميلة تخاف القاء السلام علي الساحرات

أفكر كثيراً، كم هن جميلات هؤلاء الفتيات حاملات الكتب! تستحق طفلتي ألا تأخذ دورها في ارتداء السواد.

كثير من الجنون

وأنا ميت بالطبع

تبدأ القصة بموتي

رفرفت روحي بعيداً عن المكان وتركت لهم الحياة الدنيا بما فيها ومن فيها وذهبت، لم أقصد الذهاب ولكنه ذلك السائق الأحمق الذي أتى مجنوناً في سيارته الفارهة وإقتلعني من فوق الأرض فطرت محلقاً ثم سقطت ناثراً دمائي في كل مكان، كنت قد ترجلت من سيارتي لأشتري علبة سجائر. هكذا كان الأمر هيناً جداً، لأجل علبة سجائر فقدت حياتي، ولكني رجل مؤمن وأعلم أن كل هذا كان مسطوراً من قبل، ولو لم تكن سجائري قد نفذت لنزلت في نفس اللحظة لأي سبب آخر.

ما يهمني الآن أن يجمعوني من فوق الأسفلت الساخن لأننا في قيظ أغسطس، والأهم أن يتعرفوا على شخصيتي من أوراقي، الحمد لله كلها في حافظتي، أكاد أمد يدي لأتأكد من وجودها ولكني ميت بالطبع. ذهبوا بي بعد فترة من تغطيتي بورق الجرائد كريه الرائحة إلى حيث تُلقى جثث الطريق، والآن أخذت وضع الإنتظار في أحد الأدراج إلى حين حضور أحد أقاربي، بمن تُراهم اتصلوا؟

آخر الأرقام المسجلة على هاتفي كانت لماهر مدير حسابات الشركة والذي كنت أوبخه توبيخاً شديداً بعد أن فاحت رائحة تواطؤ بينه وبين موظف آخر في شركتي، هل سيتصلون به؟ لا أتمنى، إنه يكره سيرتي ولعله سيفرح لمماتي، بل ربما حاول ترتيب ملفاته قبل ان يُذاع النبأ هنا وهناك، أقل ما سيفعله هذا النذل أنه سيرجيء الأمر بالتأكيد ويتركني هنا طويلاً يا إلهي، كيف التصرف الآن؟

أدعو أن يبحثوا في هاتفي عن رقم آخر، ولكن من؟

ربما اتصلوا بعمتي !! إنها تطاردني مؤخراً لنهب جزء آخر من مالي، لقد حادثتها بالأمس فقط لوصل رحمي، ولكنها عادت لإسطوانتها المشروخة عن حقها الذي ضاع بين أشقائها وظلم والدي لها!! الحق أن والدي كان ظالماً للجميع، سألقاه قريباً عندما أخرج من هذا الدرج اللعين وسأخبره بأن ظلمه لتلك السيدة كلفني الكثير وأنني لا ذنب لي في كل ما حدث، أفعاله دفعتني للإنفاق عليها وعلى زوجها المُتعطِّل بإرادته، لو أتاهُم الآن نبأ موتي سيهرعون حتماً إلى محاميهم فأنا لم أنجب ولداً، ولا بنتاً!! لم يسعفني الوقت، أو لعلي عقيم!! لم أفكر بالأمر من قبل.

لعلهم سيتصلون بسلمى!!!! أكاد أنتفض في رقدتي ولكني لا أقوى على ذلك، فأنا ميت بالطبع.

لا أريدهم أن يتصلوا بسلمى ، إنها من الرقة بحيث ستموت لو أبلغها أحد الغرباء بخبر موتي، ولن يقدر أحدهم أنها مجرد صديقة تسكن في بلد آخر بعيد ولا تربطني بها صلة أو قرابة، ولعلهم سيطالبونها بالمجيء للتعرف على جثتي، وسيكون من العسير أن تشرح لهم أنني خطيبها الأول وأننا عدنا للحديث بعد لقاء صنعته الصدفة منذ عامين.

هل يفهم من سيتصل بها أنني لم أرها منذ ذلك الحين وأن أحاديثنا المتكررة صارت فضفضة معتادة وثرثرة لا نبغي من ورائها شيئاً، لن يفهم أحد، وربما ضايقها المتصل واحتفظ برقمها، ربما ابتزها، أو راودها، لم أجلب لها مشكلة منذ عامين ولكنني أجلب لها المشاكل بعد موتي.

ماذا أفعل إذن؟ كيف أتصرف وأنا ميت بالطبع!!!!!!

ستحزن سلمى حزناً شديداً ولكنه ليس بقدر حزن نشوى بالتأكيد، ليتهم يبحثون في قائمة الهاتف بصورة جيدة، بل ليتني أشرت بجوار اسمها بكلمة زوجتي ولكني بالطبع لم أفعل، لقد كتبت نُنُش، هل كان يجب أن اكتب " نُنُش المدام"؟!! لن يتصلوا بنُنُش أبداً، فهي ليست رقم من الأرقام المتكررة كثيراً في قائمتي اليومية، وهل يتصل رجل بزوجته أبداً؟؟

إن نشوى على قدر كبير من القوة، وهي من يحق لها التصرف في جثتي بالفعل.

أظنها ستتصل بأخيها وتأتي معه متشحة بالسواد، باكية لكن بحسم، وستشهق كل حين ولكن في وقار، ولكن رغم كل شيء أدرك تماماً أنها ستحزن حزناً عميقاً يليق بعلاقتنا الزوجية الراسخة منذ ثماني سنوات، ولعل شريط حياتنا المليء بالأحداث سيمر أمام عينيها وهي تطالع جثتي وتضع عليها قبلة شكر وعرفان.

أرجوكم اتصلوا بنشوى.

أكاد أنطق ولكن كيف أفعل وأنا، ميت بالطبع.

أحمد الله أنهم لن يفكروا في الإتصال بأرقام دولية فقد أنفقت الليلة الماضية في الحديث مع مندوب شركتي في الصين لأطمئن على سير الصفقة التي انتظرتها منذ زمن ونلتها أخيراً، أتمنى ان يهتم الرجل ولا يثنيه خبر وفاتي عن المُضي في إجراءات وصول تلك البضائع، ستشكل تلك الصفقة نجاحاً للشركة وستهنأ نشوى بالمال الوفير، كما أنني حادثت شقيقي في لندن واستقبلت مكالمة من صديقي المخلص إيهاب المُقيم في كندا، لن يتصلوا طبعاً بالصين ولا إنجلترا ولا كندا، غاية ما أتمنى أن يكون وجود هذه الأرقام في قائمتي سبباً ليهتموا بجثتي، إنني جثة مهمة بالفعل، وعلاقاتي متعددة للغاية، ليتهم يفهمون، كما وأن هذا الدرج غير مريح بالمرة، رغم أني لا يجب أن أتألم، فأنا ميت بالطبع.

أحدث نفسي مُطَمْئِناً إياها، إنهم يريدون التخلص مني بسرعة، ربما ليفسحوا المكان لجثث أخرى، إن قتلى حوادث الطريق فقط يحتاجون لمكان شاسع متعدد الطوابق.

طالت رقدتي حتى ملَلَت، بالفعل ملَلَت، وانتبهت إلى مرور أيام منذ جئت إلى هذا المكان، ولا جديد يحدث سوى صوت ارتطام الأدراج من حين لآخر.

ولكني سمعت اليوم درجي يُفتَح، ويحملني رجال إلى حيث لا أعلم، لم أسمع صوت نشوى ولا أخيها، ولا ماهر، لا أحد، وبعد قليل سمعت أحدهم يؤكد أن بياناتي لا تحمل اسماً ولا عنواناً ولا تليفوناً وأنهم وجدوني على جانب الطريق بلا متعلقات.

قالها الرجل الذي يحملني ببساطة: لعلها سُرِقت...

هل أكلت الحروف رأسي؟

"إنني أقوى مما يتخيل بشر، إنني ما أنا عليه من قوة وجاه وهيلمان، إنكِ رغم العِشرة الطويلة لم تعرفينني بعد!"

صرخ بهذه الكلمات وهو يهزها بعنف حتى تساقطت كورقة خريف باهتة، لم تكن المرة الأولى ولكن من يدري ربما كانت الأخيرة، هل ستكون أبداً الأخيرة؟

أسدلت جانب الستارة الثقيلة التي تريني جانباً من حجرة نومهم واختفيت، ....

السلام عليكم، لم أبدأ بالسلام! وهذا سهو لا يليق، أقدم لكم نفسي، أنا الكاتب، أنا من يختلق هؤلاء ويأتي بهم من عدم، أنا من تعامل معهم وعاشرهم وتحدث عنهم للآخرين حتى ظنوا بعقلي الظنون، أنا من عبث بسيرتهم ومزقهم بالشائعات وافترى عليهم وجاملهم وحللهم نفسياً ومارس تعذيبهم على الورق، لعلكم ستلاحظون ذلك أو لن تلاحظوه- لا فارق- فأنا موجود، سأكتب دوماً ولن أتوقف عن الكتابة مجاملة لهم لاعتبارات إنسانية فأنا أعتبر نفسي لا آدمي، اغتياب اللامرئيين ميزة لا آدمية، ربما كانت ميزة حيوانية! وإن كانت الأبحاث لم تثبت ذلك أبداً!

المهم أن الرجل ظل يصرخ ويؤكد على عنفوانه وهي صامتة- غير ذاهلة- فهي لم تكن المرة الأولى التي يصرخ فيها هكذا حتى يخرج الجيران من مكامنهم يتسائلون عن سر الغضبة ويتلصصون ليستمعوا إلى أسرار المرأة الجميلة، ينتظر الرجال منهم كلمة تحمل إشارة لسوء خلقها فيستغفرون الله كثيراً ويُدخِلون زوجاتهم ويتأهبون لتحيُّن الفرصة؛ مادام زوجها ينعتها بالفُجرِ فهي حلال حلال، أما النساء فينتظرن نفس الإشارة ليسقطنها من قائمة الإحترام ربما ليشفين حقداً في نفوسهن، لكن الرجل لم يفعل، وكل ما وصل آذانهم هو الحديث عن جبروته، تضاحكوا قليلاً وذهبوا إلى حالهم، والرجل الزاعق ذاته أصاب حنجرته شرخ فتراخى صوته بينما ظلت هي صامتة.

***

يقول "إدجار رايس" أن الغضب والكره تجاه من نحب(!) يسرق الحب من القلوب لكن الشفقة والعطف يتركوننا للصمت، أنا مؤمن جداً حتى الثمالة بأن البشر جميعاً- حقيقيون ومختَلقون- يكرهون بدرجة ما من يحبون، ولأن "رايس"هو مبتكر شخصية "طرزان" فلا بأس أن تستمع أي "امرأة" لقولته وتصمت، فهي تحيا بصورة ما مع طرزان العصر الحديث!

تُمنّي نفسها بالثورة التي ستطيح بكل شيء أمامها، تحيا بتلك الثورة في الأحلام التي يسمح طرزان بها ليلاً، وتنتظر تلك اللحظة التي تتحول فيها إلى "شيتا" زاعقة بعد أن يصيب حنجرته الخرس، لكن هذه اللحظة قد لا تأتي أبداً وتنتهي "شيتا"!

إنني أفكر فيهما كثيراً، تعذبت لشهور طويلة حتى استطعت أن ابتدع تلك الشخصيات فأنا لم أتمكن يوماً من اختلاق شخصية مسالمة، كل شخوصي يحملون على جباههم مسحة الشر الطبيعية، لكن هذه المرأة بصمتها أمام الصراخ كانت مسالمة على غير عادة البشر/ حقيقيون ومختلقون، لكني نجحت في جعلهما موجودان في حيز مجاور لي، كنت أقف خلف الستار وانظر للنافذة المقابلة فأشعر بهما بالداخل؛ أتنصّت على صراخه الذي يوقظني من وحدتي ويتركني للتفكير العميق والتساؤل الأبدي منذ أن تواجدا بخيالي: أين ذهب الحب؟ وهل كان هناك حب يجمعهما ليتقبلا فكرة الحياة معاً في هذا البيت المشترك؟ وإن كان قد ذهب وأتت عليه الزوابع وطردته خارجاً فلماذا الإستمرار؟ هل أصابهما العته؟ أنا أرقب سعادة الآخرين بجنونهما المطبق ولكني أترقب سقوطها في شباك رجل آخر..

إن كلمة "رايس" السابقة تنقصها كلمة سقطت سهواً: الشفقة والعطف يتركونا للصمت، والخزي.

ولا شك عندي في سقوط، ما اسمها؟ نيفين كما أتذكر، لقد أطلقت عليها هذا الاسم لأنه اسم فتاة عرفتها قديماً، أنا لا أطيق ما تفعله بنفسها، لا أطيقه! ولا شك عندي أنه سيكون لها سقوط مدوٍ إن لم تنقذها عناية الله بصبر أيوب مثلاً أو تلقي في قلبها سكينة ما، يؤلمني الظلم كثيراً ولكنني كمتفرج لا أستطيع أن أدفعه عنها، إنها ناضجة بما يكفي أن تدفع عن نفسها الظلم!

***

كنت دائم الجلوس في حجرتي وحيداً حتى اعتادت زوجتي على ذلك الأمر، تماماً كما اعتادت على صياحي الغير مُبرّر في بعض الأحيان، كانت في بدايات زواجنا تدفع باب الحجرة وتندفع لترى ما الأمر ولكن بعد حين اعتادت على تجلّيات الكاتب، ولأنها كانت إنسانة محترمة- اجتهدت كثيراً للعثور عليها- فلم تكن لتذيع سرّي لأحد أو تُشهِّر بي، ولعل صمتها كان نتاج تقديرها لما أكتبه حيث أنه كان مصدر رزقنا العظيم، فوظيفتي في وزارة الزراعة لم تكن لتمنحنا غير "تقاوي" حياة..

ولهذا لم تفتح زوجتي الباب صارخة- توقّعت ذلك تماماً- عندما سمعت صوتي يعلو ككل مرة، فأنا من فتح الباب هذه المرة وخرجت من المنزل بأكمله لا ألوي على شيء، كنت مُرتدياً بيجامتي وفوقها "روب" شتوي وفي قدميّ جوربي الصوفيّ الذي صنعته لي زوجتي يوماً،

وعبرت الشارع الصغير غير عابيء بالمطر، لم يستوقفني بواب البناية المُقابلة فقد كان بالتأكيد مختبئاً في حجرته الواطئة تحت السلم مُحتضناً زوجته وأولاده اتقاءاً للبرد، صعدت بسرعة شديدة على السلم البارد وكأني أعرف طريقي جيداً، وكأني خبرت هذه البناية مرات ومرات، وعندما وصلت لشقة بعينها طرقت الباب طرقاً متوالياً ثم بدأت أدفعه بكتفي، وأحسست بحركة خلف الأبواب الأخرى، متلصّصون جُبناء!

فتح لي الباب رجل لم أتبيّن ملامحه فقد لكمته على وجهه فانكفأ على جنبه، وانطلقت في لحظة إلى غرفة مواجهة لباب الشقة وفتحتها لأجد سيدة تقف في منتصف الحجرة تنظر إلي بفزع وتحاول جذب ملاءة الفراش لتُداري جسدها.

أمسكت بكتفيها وقلت: لا تخافي، لن يستطيع أن يفعل بك شيئاً، لا تخافي التفت إلى الخلف للحظة فوجدت الرجل يحاول الهجوم علي فعاجلته بطعنة من سكين كنت قد استللتها لتوي من جيب "الروب"..

***

لم يفهموا أبداً أن اسمها نيفين وليس سهيلة، لم يفهموا أنني لم أكن على علاقة بها على الإطلاق إنما هو محض تفاعل إنساني، لم يفهموا أنني كنت أشعر

بها وإن لم نلتق، ولم يصدّقوها عندما أكدت لهم أنها رأتني لأول مرة في حياتها يوم الحادث! والأدهى أن المحاميّ الخاص بي لم يستطع إثبات أنني كنت أدافع عن نفسي، لقد كان الأمر كله هيستيرياً فلم يفهموا حتى أنني يجب أن أدون ذلك على أوراقي الخاصة لاستكمل القصة اللعينة، وكذِبوا جداً وكان كذبهم مكشوفاً وفاضحاً عندما ادّعوا أن زوجتي تطلب الطلاق مني! كيف؟ كيف وهي من غزلت لي جوربي الصوفي؟ كيف؟

كائن ثلاثي الأبعاد

لم أكن يوماً شخصاً "مستوياً" كالآخرين، كنت رجلاً ثلاثي الأبعاد بينما الآخرون جميعاً دوائر أو مربعات مرسومة على الورق، لم أصرح أبداً لأحد بما أراه؛ أرى الناس جميعاً بلا "سُمْك"، أتعامل مع رقائق بشريّة منذ الصغَر، ولكني كنت مختلفاً بلاشك!

كنت أقف أمام المرآة وقفة جانبية فأرى لي هذا السُمك وكنت أجعل إخوتي يقفون وقفتي فلا أرى منهم غير طبقة رقيقة؛ وَرَقَة رفيعة تمتد من الرأس وحتى القدم، وكنت أضحك كثيراً فيصيبهم الجنون، وصرت غريب الأطوار! أنا غريب الأطوار!

لعلّي نشأت على هذا ولم أتّعظ من أمور كثيرة لم أفهمها في صغري حيث كنت أبادر بالاعتداء على الأشرار الصغار من رفاق اللعب وأصيح بأحدهم زاعقاً: سأُكَرمِشَك بقبضة يدي، وأنهال عليه بقبضتي فتتورّم ويسيل دمي، عرفت مع الوقت أنهم رغم هشاشتهم البادية أقوياء وأنه يجب عليّ الإحتراس. ولمّا كنت الأوسط بين أخوتي فقد كان هناك تيه يحيط شئوني ونسيان يُغلِّف كل أموري! كان يكبرني اثنان وتصغرني اثنتان، ولم يعبأ أحد بتفحُّص ضحكتي الماكرة ونظرتي الساخرة لأجسادهم الفارغة، لم تتوقّف

أمي أمامي يوماً لتسألني: ما بك يا بني؟ ولم يعبأ والدي بسؤالي يوماً عن دمي الذي يسيل في معارك كنت أراها محسومة لصالحي لكنها تنتهي لغير ذلك، كنت أعود دامياً فلا يترك جريدته ليلقي نظرة على حالي! لعلّه الاعتياد، عندما اشتدّ عودي وخبرت العالم من حولي بدأت أفكر بأنني مريض وقررت الذهاب لطبيب؛ طبيب عيون، حيث رأيت أن الأمر يتعلّق بقدرتي على الرؤية ، لا تفسير آخر قادني إليه ذهني غريب الأطوار، ولكن الطبيب – ثنائي الأبعاد – أكد أن عينيّ على ما يرام! وعندما انتهيت من دراستي وبدأت أبحث عن العمل. كنت قد خبرت الدنيا أكثر فقررت قبل أي شيء أن أذهب إلى طبيب نفسيّ، نعم، تمدّدت أمامه على "الشيزلونج" الشهير وبدأت أحكي، فدعاني الرجل لأن ألمسه، تحسّست يديه وأصابعه وشعرت به مثلي، كان ذلك ما يحدث عندما ألمس أي إنسي تماماً ، لكني لا زلت أراه مستوياً!!

أخبرته بأمر عينيّ السليمتين؛ فطفق يتحدّث بمصطلحات علمية عجيبة لم أفهم منها حرفاً ليُحلّل المال المدفوع سلفاً في الزيارة، أظنني خرجت من عند الطبيب مُحمّلاً بأسى ضاعف سُمْكي، وجلست على المقهي لساعات طوال أرقب ثنائيي الأبعاد يتحركون كعادتهم، وأتاني صديق كورقة اللعب التي تحمل رأس الولد ليجلس معي ويحكي عن تفاصيل يومه فلا يرى دموع مكتومة تكاد تُفجِّر عينيّ.

لم يصدّق أحد أن أوراقي قد قُبلَت في تلك الشركة الزاعقة النجاح وظنّوا أنني أبالِغ، لم يتيقّنوا إلا عندما لملمت ملابسي وودّعتهم في طريقي لموقع الشركة بقلب الصحراء! وقتها هطلت دموع أمي لأجل فراقي! واحتضنتني في صدرها الذي رأيته مُسطّحاً وأحسسته عند انغماسي فيه دافئاً كفراش الشتاء بعد أن أملؤه نوماً، " أحسسته" حضناً عميقاً لكنه يستحيل في عينيّ برقّة الورقة عندما أخطو إلى الوراء، في تلك اللحظة داهمتني فكرة زواجي، ورأيت أنني سأتعذّب لو كانت زوجتي مثلهم جميعاً، كنت قد بلغت الثانية والثلاثين من عمري عندما نلت الماجستير الذي أشرف عليه أستاذ فائق الاستواء وكأنه ورقة "بفرة"، ولكن الرجل كان حازماً جداً رغم ذلك! ظللت بعاهتي الخفيّة أو ظلّوا هم بعاهتهم المستمرة في عيني حتى صحوت في اليوم التالي لتكريمي مُختلفاً تمام الاختلاف ... تكريمي؟ كان ذلك لإنقاذي الموقع من كارثة مُحققة كاد أن يتسبّب بها زميل لم أفضح أمره، لكنني على العكس احتضنته وظللت أهز كتفيه مُبتسماً وأنا أشعر بهما بين يدي وأرى استدارتهما بعيني!صاروا جميعاً فجأة بشراً طبيعيين أو هما عيناي استقامتا فجأة، لا أدري، المهم أني كدت أجن وقبّلتهم واحتضنتهم جميعاً مراراً حتى قالوا أنني: غريب الأطوار!

لا يَنسى

خرجت من الدكان مسرعاً بعد أن اكتشفت اختفائه، ضاع صوتي وأنا أنادي اسمه ولكني لم أتلق رداً فانطلقت إلى الخارج، وجدته يقف في سلام على الرصيف يتأمل متسولاً يبسط يداً للمارة، سمع صوتي أناديه ففزع وجرى ليحتضنني في مستوى يعلو عن ركبتيّ قليلاً..

"طفلي يبلغ من العمر سنوات خمس. حديثه قليل لكنه إن تحدث أصابني الجنون."

- فاكر يا بابا الست الشحاتة لما كنا في الجامع الكبير؟
- مالها؟
- لما قالت لك يعني إيه شلن يا بيه دة مش بيجيب حاجة؟
- إنت فاكر لسه؟
- وكانت لابسة أسود مش نضيف وشبشب مقطوعة وايدها بردو مش نضيفة و...

ظل كعادته يذكر كل التفاصيل بلغته القليلة وألفاظه التائهة، وكنت أستمع بانبهار محاولاً مضاهاة ما يقول بما تمكنت ذاكرتي من احتماله ولكن

محاولاتي توقفت لأن روحي جحظت مثل كل مرة وعندما تذكرت الحدث بالفعل، وتذكرت أن عمره كان عامين!!

***

عندما ماتت سلمى الرقيقة ملأ الصراخ جنبات البناية كلها، لم تحتمل أمها صدمة الفراق المفاجيء، الحق أن الخبر كان صعباً على التصديق فسلمى طفلة تدرس بالإعدادي، وديعة وهادئة وجميلة كالملائكة.

دخلت إلى حجرته لأطمئن عليه فوجدته متكوراً جوار الفراش يتحدث بسرعة وبصوت خافت فأسرعت إليه أسأله عما به، كان يتحدث بلا توقف ناظراً إلى الفراغ، يحكي أن الموت لص، وأنه سرق أمه من قبل وأنه خائف.

أنكرت خوفه وهو رجل في الجامعة الآن، قلت له أن الرجل لا يخاف، رددت العبارة بلا تفكير لكنه ذكرني بثلاث مواقف قلت فيها من قبل أنني خائف.

طلبت العون من الله، ضممته إلى صدري وقرأت شيئاً من القرآن جوار أذنه ليهدأ، وبدأ بعد صمت قصير يروي تفاصيل ليلة وفاة أمه، كيف كانت نائمةكسلمى في سلام ثم لم تستيقظ أبداً، حكى كل شيء حتى شعرت أنني سأخرج إلى صالة البيت لأجد المعزين الذين وصف لباسهم، وردد كلماتهم، أخبرني من بكى ومن تظاهر بالبكاء!

في تلك اللحظة فكرت أنه علي الذهاب به إلى طبيب، أو الذهاب بنفسي، نحن الإثنان على وشك الجنون، إنه لا يهدأ، والذكريات تأبى إلا أن تتكون وتتراكم، تأبى أن تختفي أو تتلاشى من عقله فأشعر في بعض الأحيان أن رأسه يزداد حجماً، أو أن عقله سينفجر! إنني أصحو كل صباح مبتهلاً أن يمر اليوم بلا حدث يمكن اختزانه، أدعو الله أن تركد بحيرتنا ركوداً لا يحركه حجر طائش، لكن الأيام الراكدة لا تخلو من حديث، لا تخلو أبداً من حكاية أسمعها بعد حين بكل تفاصيلها التافهة أو الهامة، والطبيب الذي أخبرنا أنه مرض نادر لم يمنحه إلا مضاداً للقلق، ادّعى أنه سيهديء من عنفوان طوفان الذكريات، تناولت الدواء معه لأريح ذهني، دون أمر الطبيب.

***

كنت أنتظر عودته كعادتي، جالساً على مقعدي المفضل وبيدي الريموت كونترول عندما سمعت جلبة على السلم ميّزت فيها صوته، أسرعت لأفتح الباب لأجده وسط جمع من أصدقائه هائجاً كالثور، أدخلوه وهم يحاولون تهدئته وقال لي أحدهم هامساً:

-لازم دكتور يشوفه، هجم على المدير وأنقذنا الرجل من بين يديه بالعافية، وتم فصله من العمل فقط لأنه واجه مديره بشيء من الذكريات المهنية التي كان يجب دفنها وعدم الخوض فيها!

***

- لا.. الأمر ليس كما تتخيلين، الأمر ليس حباً فقط، لا معنى أن تحبينني وفقط هذا لن يجعل حياة مشتركة بيننا قابلة للإستمرار

- أنا لا أفهمك تماماً، لكني أحب غموضك وصمتك الذي أظنه يخفي الكثير، وأحبك.

تناولت حبتين من الدواء معاً ورشفت قليلاً من الماء.

- حسناً سنتزوج، لن يرضى والدك أن تطول الخطبة أكثر من ذلك.

انتهى لقائنا، وحمدت الله على أمر قررته منذ عرفتها، قررت أن أختزن أكثر، وألاأبوح مهما حدث، لقدكان القليل الذي أبوح به سبباً في نزيف بدماغ والدي أدخل الموت/ اللص إلى بيتنا.

قررت أن أحارب عقلي بقطع لساني.

أيام للبيع

- باقي عشرة أيام.
- سيصيبك الجنون قبل وصوله!

قالها حبيبي وهو يتصفح جريدته، نعم ما زال "يتصفح جريدة"! يخبرني دوماً أن الجريدة اليومية لا نظير لها، لا تضاهيها مواقع إنترنت ولا إذاعة أو تلفاز، وأقول له أن أخبارهم قديمة، وما من خبر يخبرني به إلا وأكون قد عرفته قبل يومين بتنويه مقتضب على هاتفي.

نتجادل؟ نعم نتجادل كثيراً جداً ولكنه ذلك الجدال الذي يروي قلبينا معاً، ويسعد أيامنا بعد التقاعد، أحمد الله أن ثمة حوار لطيف يجمعنا عادة ما ينتهي ليبدأ، وعندما يبدأ لا ينتهي. كثيرات من صديقاتي الغير وحيدات يمضين العمر وحيدات بصحبة أزواجهن، لا حديث، لا رفقة طيبة، بل سحابات حنق متراكمة على استعداد دائم للهطول.

- باقي ستة أيام.
- هناك ابن آخر يحيا معنا في هذا البيت، عليك أن تقسمي حبك بالعدل.
- بالفعل أقسمه بالعدل، فأنا أفتقد أيضاً من يحيا هنا..

العدل؟ أتسائل دوماً عن العدل فيما حدث لأحمد ومحمد، سفر أحدهما وبقاء الآخر هو أقل ما ينقض العدل، من قال ان أي الحالين أفضل؟ ثم ان الأفضل بالنسبة لكل منهما على حدة غير الأفضل بالنسبة لي، أنا وأبيهما.

ربما كان أحمد مجتهداً أكثر، على أية حال لقد اتفق الجميع أن المنحة فرصة أفضل.

- باقي ثلاثة أيام..

- هذا يعني أنك ستبدأين الطهو غداً، وهذا يعني أن اليوم للمشتريات.

أحمد يحب اللحم، ومحمد يفضل السمك، وكلاهما يحب المانجو. إنها أول مرة منذ فترة طويلة يخرج محمد معنا للتسوق، يقول أن الفواتير المتوقعة ربما تعرّض قلب أبيه لأزمة. محمد يتخصص في القلب، أقول له دوماً أنه تخصص روح، بينما أحمد تخصصه جراحة المخ والأعصاب، الحق أن لكل منهما من تخصصه نصيب فأنا أنادي الأخير "دكتور عقل".

***

- لا يمكن أن آكل كل هذا الطبق!

صرخ أحمد بهذا فرد عليه أخوه بأن الطبق لا يتعدّى سعراته اليومية بالكثير، لمحت الأخير يغمزه خفية مشيراً إليّ، خشي أن يصيبني الحزن لأجل طعام لم يؤكل؛ هذا هو محمد.

***

- لن أتناول شيئاً من هذا، لن ترغمني على الحياة

قالها زوجي بقوة بينما كنت أحتمي به، وأحمد يمد يديه بقرصي دواء، يقول أنها ستمنحنا أياماً زائدة عن المتاح! محمد يكاد يفقد عقله ويهدد أخيه بكلمات كثيرة لكن الأخير كان مصمماً، يعاند كثور!

- استغفر الله يا بني، هذا قضاء الله أؤمن به ولا أريد غيره، ما أدراك أنه سيمنحني بعض حياة؟ هل تعرف متى سيحين أجلي لتتحدث بهذه الثقة؟ إنك تخرف..

- لا أعرف، لكني أتيت لهذا، ولهذا فقط، وستتناولونه وكذلك سيفعل محمد، وسأفعل أنا، إنه نتاج أبحاث عدة ولم يكن من الممكن أن أنتظر بينما قد يهاجم الموت أياً منا في أي لحظة!

- يا بني..

- لقد انتهى الكلام وسنأخذ الدواء، وسأبدأ أنا وفي هذه اللحظة.

تناول أحمد قرص الدواء وامتدت يده لكوب الماء على الطاولة لكنه أمسك بحلقه وظل يسعل، و...

لم يستطع أياً منا إسعافه، كانت مجرد حبة دواء اتخذت مساراً خاطئاً ومنعت عنه الحياة.

اللعنة

"أخبرني عن جدي.."

قالها الصبي وهو يجلس قربي متدثراً بغطاء ثقيل، شتاؤنا قاس كالصيف، وبيتنا الكبير، لأنه كبير، لم تكن لتؤثر في برودة جدرانه أعتى المدافيء.

نظرت إليه ورفعت الغطاء إلى أكتافي وقلت: ماذا تريد أن تعرف عن جدك، إنك تحفظ عن ظهر قلب كل الحكايا، ألا تمل؟!

تصاعدت رائحة النوم والكسل عندما تحرك، ولكننا لم نتأفف بل التصقنا أحدنا بالآخر طلباً للمزيد من الدفء، وامتدت يده قليلاً إلى خارج الفراش ليلتقط برتقالة ويشرع في تقشيرها.

طقوس الشتاء لا تتغير رغم المدافيء والتكييفات والأغطية الحريرية، وهو أيضاً لا يتغير بل يسأل عن جده بنفس الإصرار، أجل، أجابني بأنه لا يمل، وبدأت أعيد الحكايا عن الجد المغوار ذي المواقف الباهرة التي يتحاكى عنها الجميع في بلدتنا الصغيرة التي سميت على اسم جدنا الأكبر.

كان هذا ما يحدث كل شتاء لأن الشتاء يمنعه عن اللعب والسهر مع رفاقه، الشتاء يقسو عليه ويشعره بالوحدة التي لا تقتلها غير الأحاديث.

بعد شتائين اختلف الأمر عن سابقه، إنه يسأل الآن عن جدته، وأمه، وأخته، وعماته، إنه يسأل بحدة غير معتادة ولم يكن من الممكن أن أفعل غير ما فعله جده معي، أن أنتظر حتى يتفتح عقله فيقبل اللامعقول، تماماً كما قبلت أنا اللامعقول من قبل، واستسلمت له، وكما فعل والدي ومن قبله الجد وجد الجد.

سيمضي الشتاء وسينشغل في دراسة علومه، وسيهنأ بالأجازة، سيلعب.

- لن أذهب لأي مكان وسأظل هنا معك، أنت تحتاجني والحيوانات تحتاجني..

- أعزك الله يا ولدي!

"يضحك"

- أقصد المزرعة، وكذلك الخيل، بعضهم لا يأكل إلا من يدي كما تعلم، سأبقى فأنا لا أحب الزحام والسفر..

" يتهته قليلاً"

- ... ما هي الجنيّة؟ هل سمعت الحديث عن ال....؟

- نعم، ولكن لا تشغل بالك بهذه الأشياء

- أشياء، لم تقل خرافات بل قلت أشياء، هذا يعني أنك تصدق!

لفني صمت غريب وأنا محاط بتساؤلاته، لا يثنيه طقس حار ولا برودة، عجباً لقد كبر وصار هناك ما هو أهم من التهاب حلقه، أودور برد يلازمه، يجب أن أعي ذلك، إنه يكبر وأنا لا أكبر كما يجب!!

***

بعد شتائين آخرين، بل ثلاث، جاءني بها، حُلوة كالقمر، يقول أنها زميلته في الجامعة..

سمعت همهمات النسوة اللاتي يأتين للتنظيف وإعداد الطعام، ورأيت "هدية" تشير لهن ليمتنعن عن مصمصة شفاههن. ثم جاءت هدية-كبيرة موظفات البيت/ حبيبتي، وأخبرتني أنني يجب أن أخبره بوضوح لأن بنات الناس لسن أضحية، وأن أعمارهن ليست لعبة، وأن قلوبهن تستحق أن نتقي الله و ...

كنت أعلم أنها إنما تتحدث عن نفسها وعن تضحيتها بعمرها في خدمتي بدلاً عن قبول الزواج مني، كانت تحبني وتكره أني أضعت عمرها، معها الحق كله.

ولهذا أخبرته، قلت له وأنا أتحدث كوالدي واتخذ هيئته ذاتها، قلت له أننا مصابين باللعنة التي تمنعنا من الزواج، ولكن لا بأس أن نحب.

قلت له أن نسائنا تموت.

وأن الجنيّة التي سأل عنها هي عشيقة جده الأكبر، أهدت عائلتنا اللعنة انتقاماً لتخليه عنها..

قال أنه لم يفهم، ولن يفهم رغم سماعه تلك القصص من رفاقه منذ الصغر، ولكن مرور الوقت أقنعه بأنها لعنة، لام صمتي وعجزي عن إخباره، ولامني على زواجي من أمه فقلت أني لم أكن متأكداً...

- ولكني متأكد.. الأمر تكرر على مدار خمسة أجيال لذا فلم يعد هناك مجال للشك، ولهذا سأتزوج..

لم أفهم، وانتابني الرعب من ملامح وجهه التي شعرت أنها جديدة تماماً!!

نظر لي مبتسماً وقال: أتعجب من اندهاشك! إنك وجدي وأبوه وأبوه فعلتم نفس الشيء ولكن يختلف الدافع، لم يجب أحدكم امرأته أبداً لقد تزوجتم جميعاً كما نفعل بخيولنا، أنت مثلاً تزوجت أمي، ولم تتزوج هدية لأنك أحببتها، إنك تورثني اللعنة والتحذير فدع لي التقدير.

إنني سأرث فتاتي وهو ما سيضاعف مزارعنا ويجعلني أكبر مُصدر للخيول، لا أعرف عن جدي وسابقيه الكثير ولكني أجد شهوة المال كسبب للزواج أكثر احتراماً، ألم يحن الوقت لنستفيد من اللعنة ؟!!

الناس صناديق مغلقة

"يسعدني الآن ويملؤني الفخر أن أعلن نجاحي في تحضير هذا العقار، هذا الحلم الذي راود البشرية كثيراً وأظنه كان من المستحيلات حتى أتيت به"

كنت أحادث نفسي -وكأني أمام رهط من العلماء- نفسي التي أرهقتها شهوراً طويلة بلا نوم ولا راحة حتى أصابني الكلل، ورغم تأكدي من نتيجة عملي إلا انني كان يلزمني تجربته فعلياً حتى يكتمل الإبداع، وأسجل براءة اختراعي المذهل.

تركت الحجرة الصغيرة التي جعلتها معملي ومركز إبداعي وبيدي قارورة تحوي خلاصة جهدي، توجهت إلى حجرتي ووضعتها برفق على المنضدة، وارتميت على الأريكة وأنا أرقبها بشغف كما تفعل الأم مع وليدها الصغير.

"الناس صناديق مغلقة"

قالها لي والدي -رحمه الله- وهو يجلس معي يوماً ليحادثني كعادته، ويحاول أن يبثني خلاصة تجربته في الحياة، كان يحاول جاهداً أن يجعلني مسيطراً على انفعالاتي غير مستبقاً للأحداث، وأن أمعن الفكر قبل أن

أنطق-أو أهذي- تحت تأثير الحدث، كان يراني شغوفاً بمعرفة بواطن الأمور، ولعاً بتوقع أفكار الآخرين، كان الرجل حكيماً ولا شك، ولكني رفضت في قرارة نفسي هذه العبارة، كيف يكون الناس صناديقاً مغلقة؟ هل يمكنهم حقاً كبت مشاعرهم وإظهار غير ما يبطنون؟ ولماذا لا أملك من المفاتيح ما يتيح لي فتح هذه الصناديق؟

كنت أترك لخيالي العنان وأنا أسير في الطرقات، ومن حولي صناديق تتحرك وتتدلى منها الأقفال، وتحت كل صندوق قدمان تسيران بسرعة أو ببطء أو تتوقفان لعمل ما، كانت تحاصرني الصناديق وكلمات والدي وأفكاري المتوهجة.

ـ أهلاً يا عزيزي، كيف حالك

.....

ـ نعم، اعترف أني مقصر في حقك، لكني كنت منشغلاً ببعض الأعمال في الفترة الماضية

.....

ـ اتصل لهذا السبب، افتقد لقاءاتنا بشدة، ما الموعد المناسب لك؟

.....

ـ إذن اتفقنا، إلى اللقاء.

تطلعت إلى النافذة، وأنا احلم باللقاء، لن أجد أفضل منك يا صديقي العزيز لتكون شريكي في تجربتي وشاهداً على لحظة نجاحي، كم سخرت مني فيما سبق وكنت أغفر لحبي لك، لكني الآن سأتيح لك الفرصة لتعي قيمة صديقك الحقيقية، سيملؤك الفخر عندما تدرك، لا أشك في هذا لحظة واحدة.

ضمتنا القاعة الرحبة في نادينا المشترك وجلست بيننا رقعة الشطرنج كعادتنا منذ الصغر، نظرت إلى كأسي العصير وقد تغير لوناهما قليلاً ومالا إلى الأحمر الداكن، وفقاعات كرؤوس الدبابيس تتصاعد في بطء لتختفي عند السطح، بدأنا اللعب وبدأنا في تجرع كأسينا، لم أحاول أن أفسد الأمر فوضعت لنفسي ذات القطرة التي وضعتها له.

لفنا الصمت الطويل، وبدأ الحوار دون كلام، يا إلهي، يبدو أني نجحت بالفعل.

ـ نجحت في ماذا أيها الأخرق، أما زلت على احلامك المستحيلة، أنظر لرقعة اللعب قبل أن أقضي عليك.

ـ لا شك أنك مازلت لا تدرك ما يحدث لك -لنا- سأحاول ألا أفكر في الأمر حتى يصبح وقع المفاجأة أجمل في نهاية الأمر.

ـ كأني أسمعك تتحدث، ماذا تخفي أيها الأبله؟ وهل يمكنك إخفاء شيئاً وأنت أمامي كالكتاب المفتوح، مسكين.

ـ تنعتني بصفات غريبة وتتحدث عني بطريقة لم أعهدها فيك، ماذا دهاك؟؟

ـ لأنك غبي، تصدق كالبلهاء تمتمات الشفاه، انظر، أخطأت ومات وزيرك.

ـ تتمادى في السب وكأنك تتلذذ بهذا، كأنك معتاد على احتقاري، رغم أني لم أرَ منك يوماً أي تحقير، قد يكون هزلاً كعادة الشباب، أو بعض الغيرة، لكني ....

ـ اصمت أيها الأحمق، أنت لا تدرك أي شيء، تحيا كالميت بين قواريرك، تغلق عليك بابك ويأتيك -ياللعجب- كل ما تشتهي دون أن تسعى، إنك أحمق محظوظ ليس إلا

ـ يا إلهي، أهذا ظنك بي ؟

ـ نعم، بل أكثر من هذا، أظنك لو عرفت كل شيء لتركت هذا البله جانباً وانتبهت لكونك أكبر أحمق في الكون

.....

ـ أحسنت، فالصمت من أمثالك حكمة، خير لك أن تنهي هذه الجولة سريعاً فلدي موعد مع جميلة جديدة ولا أحب أن تنتظرني طويلاً

ـ جميلة جديدة ؟؟

ـ لا تخف، ليست زوجتك، فقد سئمت زوجتك فهي بنفس حمقك، كما أن شفتيها دوماً باردتان كالثلج

***

لاأعلم يا سيدي أكثر مما ذكرته، لقد جلسا كعادتهما قليلاً يلعبان الشطرنج، ولم يسمعهما أو يرهما أحد يتشاجران أو يتحادثان، كانا فقط ينظران لبعضهما، وانتبه كل من في القاعة على الكأس وهو يتحطم وينغرس في رقبة أحدهما، فتفجرت الدماء في كل مكان، لقد كان مشهداً رهيباً، لقد جلس الآخر صامتاً ولم يحاول الهرب

نظر الرجل إلى رقعة الشطرنج المغطاة بالدماء، ورفع حاجبيه دهشة، فقد كانت الجولة لم تنته بعد.

باقة الورد

الإستعدادات الجارية تجعل كل من حولي مشغولاً كخط هاتف، وأنا معصوبة الرأس بطوق الورد، والسيدة تكحّل عينيّ، وترسم شفتيّ وتهدهد وجنتيّ بلون وردي.

البنات يضحكن ويتدللن، ينتفن شعيرات نافرة، وفريق من السيدات آخذات في تجميل الجميع، كلهن يتجملن ويجملن الأخريات وكأنه معسكر تجميل وليس عرساً! وأمي تضحك..

انتشرت الزغاريد فجأة عندما فُتح الباب ودخلت إحداهن إلى جناح الفندق حاملة كيساً ضخماً معتماً تظهر من أطرافه حبات اللؤلؤ معلنة وصول ثوب الزفاف.

الوقت ظهراً، والعريس يتجمل هو الآخر في مكان ما لا أعرف أين هو، لكني أتبادل معه قبلات وواردات إلكترونية عبر الهاتف كلما كان متاحاً، صمم أبي أن يكون الجميع جوار مكان العُرس، منح مالاً كثيراً لتحتل عائلتنا والأصدقاء حيزاً كبيراً من فندق كثرت نجماته.

سألته قبل أن يفعل: هل أنا قطر الندى يا حبيبي لتتكلف كل هذا؟ هل أنت سعيد لهذه الدرجة للخلاص من وجودي؟

كنت أتدلل لأسمع نفيه وأسعد، وبالطبع أعرف الإجابة التي لم يقلها، بل اكتفى بقبلة طويلة على جبيني.

أما هي، أم العروس كما طلبت من الجميع مناداتها في هذا اليوم فقد كانت كالفراشة، كوني ابنة وحيدة جعل يوم العُرس حلمها الوحيد منذ عام أو يزيد، بل أبعد قليلاً، منذ أن دق الحب باب قلبي الصغير فبُحت لها قبل أن أبوح لنفسي، لحظتها مسحت دمعة فرت إلى وجنتها وتركت روحي في حضنها العميق وسمعت دقات قلبها وكأنها تستعيد العشق، كنت أعرف جيداً كل ما حدث، أعرف أنه لم يكن هناك عُرس لها، أمي الجميلة، هل أخبرها الآن أني كنت هناك؟

فكرت كثيراً في هذه المسألة وأرّقتني ولكني لم أجرؤ على إثارة فزعها.

فُتح الباب ثانية ودخل والدي في بزته الأنيقة، يضع وردتين في جيب سترته ويلمع بياض شعر فوديه فيجعله أشبه بنجوم السينما، ذهبت إليه أمي من فورها وتأبطت ذراعه وكأنما لتعلن للسيدات أن هذا الرجل لها فلا يطمعن، كنت أحب عشقهما المتزايد يوماً بعد يوم، وأعرف في قرارة نفسي أني لن أصل وزوجي لهذا القدر أبداً.

أمي تقول أن لا، وأني سأصل لهذا المدى البعيد وأكثر إن أخلصت، ولكني أرد بأن الزمن يحيل حبنا لأشياء أوتوماتيكية، يقتله بطيئاً وأن جل ما أفعله هو محاربة غزو التكنولوجيا لحبي، وتضحك أمي.

أعلن أبي وصول العريس ورفاقه، وأعلن أن حديقة الفندق على استعداد لاستقبالي، بحث عني بعينيه حتى وجدني بفستاني الأبيض أحاول جمع أطرافه بيدي لأذهب وأقبّله، فأسرع إلي واحتضنني، كنا على وشك الذهاب فاستأذنت للحظة وفتحت صندوقاً صغيراً وضعته بعناية على طاولة التزيين.

لمعت عيناها عندما امتدت يدي لتُخرج الباقة الجافة الملفوفة بعناية شديدة، أشعر أنها تعرفت عليها، باقة ورد عُرس أمي الذي لم يكن كما تتمنى لنفسها، نظرت لي أمي طويلاً، تساءلت بعينيها فهمست لها: أجل كنت هناك، لا أعرف كيف حدث هذا، لا أعرف من أين أتيت وكيف ذهبت.

لم تحتمل أمي، جذبتني من يدي بعيداً عن أبي المدهوش وهو يرى باقة ورد جافة في يدي! أبي كعادة الرجال لم يتعرّف على باقة أهداها لحبيبته يوم عُرسه!

أمي تتساءل..

وأنا أتحدث إليها دون كلام..

"أمي، حبيبتي، لقد كنت معك، أجل كنت معك، لم يأت أباكِ يوم عُرسك ليعلن غضبه على عصيانك، وغاب معظم الأهل خوفاً من بطشه، ولكني كنت هناك، شهدت فرحتك وحزنك، ورقة حال أبي حينذاك، آخر جنيهات بحوزته تحولت لباقة ورد أتى بها إليك، أما أنا فقد أتيت من العدم في رداء أبيض صغير -ربما حاكته لي الجنيّات- ووقفت بين صديقاتك اللاتي لم يكن هناك غيرهن لألتقط باقة الورد وأهرب إلى المجهول.."

سألني حبيبي وهو يتناول يدي ويُقبّلها: هل يمكن أن تحملي باقة الورد التي انتقيناها سوياً بدلاً من الباقة العتيقة؛ ستذوب في الهواء قبل أن تتلقفها صديقاتك!

تناولت أمي باقتها باكية من السعادة، والتفت لأرى الصديقات يتضاحكن في انتظار اختطاف فرحة مرتقبة، بينما عيناي تبحث عن روح صغيرة لابنتي برداء أبيض! لم أجدها بالطبع؛ لقد انتقينا الباقة من موقع شهير على الإنترنت بحضور أهلينا وزغاريدهم، تحيطني السعادة والرضا بينما أمي لم يكن لها إلا باقة الورد، وأنا..

ما لا يُقال

مشوار

زعق بصوت عال لكن صوته غيّبه زجاجه المغلق وزجاجي محكم الغلق، لم أهتم لحال المرآة الجانبية لسيارتي بعد أن صدمها وأخذ في التلويح بطريقة عجيبة، عيناه غريبتان وكأنهما بلا رموش! هذا ما لمحته في لحظة عابرة ولكن عليّ أن أمضي في صمت وبسرعة فهذا هو الحل مع أولئك الذين لا يعترفون بالخطأ ويدمغون به الآخرين، أولئك الذين لا تعكس لهم المرايا غير صورهم مهما ظهر آخرين بالجوار!

وانتبهت بعد فترة قصيرة إلى وجوده الدائم من حولي! تارة في الأمام وتارة بالخلف، أشحت بوجهي عنه منتبهة للطريق، لكنه كان لا يزال على جانب الطريق يمشي بهوادة غريبة!

كنت أستمع لراديو النجوم-في الظهيرة- ولكنني أحسست بانقباضة قلبي تُعلي من دقاته حتى لم أعد أسمع شيئاً، كنت خائفة، مرتعبة!

***

كان حرياً به أن يهتز لكنه كان ثابتاً جداً، ربطة عنقه ترتخي على صدره وقد أبعدها القميص المفتوح عن رقبته، يتقدم في صمت و يشعر بالراحة رغم

كل شيء! هي؟ ربما كانت جميلة، فاتنة، لكنه لم يهتم، ولم يسرع خلفها على السلالم اللامعة بل نقل خطواته بتؤدة ظاهرة وبطء متعمّد، يسمع وقع أقدامها تسبقه، يسمع صرير مفتاح ومواء قطة ونداء بائع خضر عابر، لا يتوقف ولا يهتز عندما يسمع أصوات جلبة أطفال البواب، نظارته الشمسية الفاخرة تخفي تشككه في دعوتها الخفية لكنه كالمبتهل في محراب الإثم يستجيب لإلحاح جسده، لم يخش يوماً فكرة كونها عضو بعصابة تحاول استدراجه؛ رغم أنه خاطر يمر بباله كلما تتبّع امرأة، نظارته لم تفارقه على السلم الغريب عنه، يتوارى بها، وتخفي أهدابه السرية.

***

نهر الطريق يضيق، أهز رأسي وأعود لأراه بالجوار تماماً يجلس في سيارته الفارهة، ينظر أمامه مباشرة بينما تميل سيارته عمداً باتجاهي فأكاد أنحرف عن الطريق، ألمح ساعته باهظة الثمن فابتسم رغماً عني لدعابة داهمتني، أكره الرجال ذوي ساعات اليد الباهظة، لا حق لي في كراهيته أصلاً فهو عابر طريق لعين، ولكني أكرهه وأخافه معاً!

وأكره ساعات اليد، الرخيصة والباهظة، وكذلك الحال بالنسبة للرجال!

***

مُحدقاً في مرآة الدولاب كأنه يبحث عن أهدابه الضائعة؛ يحكم ربطة عنقه بينما تظهر ساقاه الطويلتان عاريتين تحت قميصه الأبيض، إنه يحدثها عن هدية ما يتوجب عليه شرائها، لم يأت رد من السيدة تحت الأغطية، فقط تصاعد من مكانها دخان سيجارة، لكن الأمر كان غريباً جداً وهو يقبّلها قبل المغادرة سائلاً إياها عن اسمها!

***

لم أعد أراه، يبدو أنني أُحمّل الأمر ما لا يحتمل، إنه ضِيق الطريق والزحام وظني السيء، لعله يظن بالفعل أني من صدمته ولهذا كان يحاول الثأر كالصبيان! أرفع رأسي لألمح وجهي لمحة سريعة في مرآة السيارة، يبدو عليّ الإرهاق والمرض، وجهي ليس داعياً لأحد، وجهي أصفر من نبتة خريف، شاحب كمتوفاة، عيناه عادت مرة أخرى، اصطدمت بهما للحظة فغشيني مُجدداً خوف عميق!

***

لم يمنعها ضيق الطريق من محاولة الهرب، تتعامل مع السيارة بعنف ويعيقها الكعب العالي الذي ينغرس في القاع، تلعنه وتستأنف الهرب، تحاذر أن تصطدم بالمارة الذين يسيرون بعيداً عن الرصيف ولكنه يقترب بعينين واسعتين خاليتين من الأهداب وكأنه ناج من حريق، يدور المقود في يدها

فجأة وتؤدي بها الفرملة الحادة إلى صعود الرصيف واستقرار عمود الكهرباء بمنتصف سيارتها تماماً، انطلق كلاكس السيارة بصوت دائم عندما ارتمت فوقه، وتجمع أناس كثيرون حولها ليس من بينهم رجل يبدو أنه ناج من حريق!

***

هل أراه؟

الطريق يمتد، وخوفي يشتد، وسيارته تحافظ على ذات المسافة المحددة بيننا، يداهمني الهذيان والأحلام الزائفة التي تخبرني فيها سيدات كُثر -في أذني وخيالي المُثقل بالحكايا- أنهن يفعلنها لمائة سبب، ليس من بينهم أهداب هاربة أو موجودة، فلا فرق ولاخوف، لا خوف من خطيئة أو مجهول أو افتضاح أمر، وتخبرني أخريات أنهن يخترن الهرب/ الموت للحفاظ على شيء لا يدركه أحد!

أهرب جداً وبجنون وأكاد أقتل في طريقي إنسان وقطة، وفي المنعطف الأخير أسبقه، وأختفي داخل جلدي.

هيفاستوس*

الآن أنا كالريشة أو أخف، الآن أنا أملك كل وقتي وكل جهدي وصحتي ومالي.

الآن أنا أحيا.

امرأة في الخمسين ستحيا وستفرح!

صرخت بهذا قائلة بعد أن تفحصت جسده جيداً وأدركت أنه الموت.

صرخت لأعاقب نفسي على اللحظة الباهتة في الزمن، ثم ضحكت، ضحكت كثيراً

***

جمعن المرآة المحطمة وداوين وجهي الجريح.كُسرت المرآة وأنا أقذف وجهي فيها بكأس ماء، أما النسوة فقد ذهبن للإتيان بطبيب، ولإعداد القهوة، تشع أسنانهن البيضاء في لجة السواد

*هيفاستوس هو ابن زيوس أبو الآلهة والبشر عند الإغريق، وابن لهيرا ربة الزواج، وقد سطرت الأسطورة عن هيفاستوس أنه هوى من السماء عند ولادته إلى قعر بركان فتشوه جسده وصار الإله الأعرج وأقبح الآلهة هيئة على عكس أخيه الذي كان وسيماً، فنبذته أمه وقامت بتربيته الحوريات وصار فيما بعد إله النار، ويقال أن هيرا نبذته لأنه جاء شاحباً وقبيحاً وقد كانت تنتظر ولداً جميلاً ليتوقف زيوس عن خيانتها.

***

مات طفلي، مات عن خمس وعشرين عاماً، كنت أحممه كالمعتاد عندما لاحظت اصفرار وجهه، أنا وحدي، أزن خمسين كيلو جراماً وعمري خمسون عاماً، حملت طفلي الرجل إلى كرسيه ثم إلى فراشه، أفعلها كل يوم، أو كل يومين على الأكثر إن لم يسكب طعاماً على ثيابه، إن لم يحتلم، ولكن هذه المرة كان ثقيلاً، ثقيلاً.

صار وجهه أحمر وعلت حرارته وظللت جواره حتى لاحظت تلك العلامات.

في لحظة عدت إلى الذكرى الدميمة، الذكرى التي ظننت فيها أنها النهاية، عندما رأيته قطعة من اللحم البشري القليلة جداً انتهى حلمي في أشياء كثيرة ووددت لو أن الطبيب أخبرني أن هناك خطأ ما!

لم يأت الطبيب أبداً إلا لمواساتي، وعندما أخبرني أنه قد يقضي نحبه في أي وقت لضعفه الشديد تنفست الصعداء.

***

- جاء الطبيب الآن.

قالتها الجارة وهي تلملم أشيائي الكثيرة التي تناثرت بفعل صراعي لأرفعه على الفراش، كان قد وقع بينما أضع على جسده القميص، انزلق إلى

الأرض وصار أثقل من أي مرة سابقة، وكأنه لا يريد أن يبتعد عنها، شممت رائحة الموت وهنا خارت قواي.

أفسحت طريقاً للطبيب وأنا أتسائل هامسة: ما زال حياً، أليس كذلك؟ كنت أعرف الجواب جيداً ولكني كنت أحاول الخداع! فتح الطبيب عينيه وأعاد غلقهما وجس نبضه الساكن- فعلت ذلك كثيراً قبل مجيئه- وانتظرت العبارة الخالدة، البقاء لله.

***

ضحكت في وجه زيوس/ نبيل/ زوجي وقلت له إنني باعتباري كبيرة الآلهة لن أسمح له بأن يغازل أخرى، سأسلط عليه عائلتي وإخوتي ليقتصوا لي منه إن فعل، كان نبيل يحبني كثيراً ولم يكن ليخرق ثقتي فيه أبداً، ولم أسعد بذلك غير عاماً ونصف العام منذ زواجي، حتى جاءني المخاض، وعندما رأيت الطفل جزعت وصرخت وضحكت، قلت لنبيل بهيستيريا: لقد أتى هيفاستوس أيها الخائن، لقد سقط ابني من السماء إلى قاع بركان.

لم يفهم أحد صراخي، وحار نبيل ماذا يفعل معي وبي، ماذا يفعل بذلك الطفل!

تغير كل شيء منذ أن بدأت إرضاعه وتحولت إلى أم تجزع وتهرع لبكائه، لم أكن أماً حتى تلقفه صدري! ولكني قلت لنبيل بعد أيام قليلة كان نفاسي فيها حاداً كأنني أنزف مياه محيط قانية الإحمرار: عليك أن تذهب.

لم يفهم في باديء الأمر لكني قلت في برود غريب: مادامت المزحة قد انقلبت إلى حقيقة فلا أظن أنها لم تكتمل؛ أنت ختنتني وهذا لا أشك فيه أبداً، ولابد أن وجود الطفل هو عقاب إلهي، أدرك ذلك كما أدرك وجودك أمامي وأدرك وجود الطفل في صدري.

الغريب أن نبيل انسحب في هدوء من كل شيء حولي، تبخّر كأنه لم يكن، صار مجرد مظروف يأتيني حاملاً قدراً من المال كل شهر، اختفى، وكأنه كان ينتظر مواربة الباب ليفر كهر مذعور.

***

هيفاستوس كسر قيدي، لم يكن أبوه من القوة ليعلقني بقيد بين السماء والأرض، لكني كنت معلقة على أية حال، معلقة بأوهام الحب والجمال والكمال، ولكنه كسر القيد ومنحني الحرية، طفلي الحبيب منحني خمسة وعشرين عاماً من الحب والحرية، ولكنه ذهب الآن.

أليس البقاء دائماً وأبداً لله؟

زمن له أجنحة!

على أعتاب الأربعين، وقفت متظاهراً أن الأمر طبيعي وأنه لا شيء موجع، لقد انتبهت متأخراً ولكن أن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي على الإطلاق؛ لهذا أعاود وضع برنامج للحياة كان ينادي لوضعه منذ خمسة عشر عاماً أو يزيد، أجاهد لأعود فاعلاً غير مفعولاً به مستسلم للإسترخاء، ألوم مجهولين أنهم لو يوبخوني ولم يعتنوا بأمري بقدر كاف! ولكن هذه الحكة لجلدي لن يحكها سواي! أُشحذ همّتي باسماً في ألم..

على أعتاب الأربعين- أخدع نفسي فقد عبرتها منذ يومين- أقف وقد تنازعتني نفسان، نفسي الراضية ونفسي الطامحة، وصراعهما بالداخل يصيبني بالوهن فأظل في مكاني لا أتحرك! تمثال قُد من تيه!

***

يرن الهاتف قليلاً فاقرأ على شاشته أنه لم يبل حسناً باختباره، ذلك الصغير!

يحزنني أن أخبر عنه نفسي والآخرين بأنه ذلك الصغير فلأكف عن قول هذا!! إنه ليس صغيراً بل على أعتاب الثلاثين، الحق لم يعبرها بعد فهو عالق في أواخر عشرينياته، بقميصه المزركش أحياناً، أو ذو المربعات الدقيقة والياقة

القصيرة الملتصقة بالنسيج، قميصه الذي يحسن وضعه في بنطلونه دون أن يضايقه كرش الأربعين؛ وماحولها..

يخبرني أنه محبط!

حسناً

يخبرني أنه ذاهب مع الرفاق إلى الشاطيء لأيام.

أصفع الهاتف، وأبصق عليه ثم، أوبخه كثيراً من حيث لا يسمعني- لا أدري هل قلت حقاً أي شيء!

أخبره أنه لا يحسن استخدام عقله اليقظ وأنها أيامه التي لا يجب عليه إفلاتها، أظن أني قتلت عشر سنوات تميتني حسرة تفصلني عنه، نحيت غيرتي وحقدي وضعفي الإنساني وقلت هذه الكلمات القابعة في الجزء اليقظ من ضميري!

وعلى الشاطيء، جلست لأرقب حسناوات هاربات من حرارة الجو يتسكعن معاً في نداء، أقص أوراقاً أتيت بها معي من دون سبب وأملأ بالقصاصات قرطاساً يدوياً وأنفخ في نهايته فتتطاير الوريقات لينظرن إلي ضاحكات، هكذا يا عزيزي كان جيلنا يضيّع الزمن؛ هكذا كنا- ومازلنا نتلف بأيدينا الحياة..

لا يروق لي مجونك الذي لا أعرفه، لكني أعرف مجوني جيداً فقد طال وقته معي حتى صرنا قرناءاً مخلصين، ألومه أحياناً كما لا أجرؤ أن ألومك لأنك وجيلك تؤمن بالحرية الشخصية، ذات المصطلح الذي كنت أجابه به من يحاول لومي.

والآن وقد بدأ الشيب ينتشر في شعري- رغم أنها فقط سنوات عشر تفصلني عنك- ألوم على مجهولين تراخيهم في لومي ولكني أجبن من أن أكون أقوى منهم؛ فهل أتركك للضياع والندم؟ أم أكون أقوى وأصلب؟ أم أجاورك النزق على الشاطيء لنجتذب الفاتنات بأساليب تختلف ونهايات تأتلف؟ لا أدري..

***

ما يهم هو أنني أصابتني عدوى ما منك..

والآن أجلس في قاعة امتحان قدت نفسي إليها مجدداً، وأمسك بالأوراق، أقرأ كل الأسئلة وأبتسم؛ إنني أعرف كل الإجابات، أو أظن أنني أعرفها.. ويمر الوقت سريعاً حتى يكاد ينتهي ومازالت هناك أسئلة بلا حلول، يمتلىء الورق الأبيض ولكني أحتاج المزيد من كل شيء، من الوقت ومن الورق، ولا مزيد..

ينتزعون كل شيء فجأة ولا يتبقى في يدي سوى قلم مُنهك، أنا منهك، وستكون مثلي عما قليل، الأعوام تمر قبل أن تنتبه لمرورها إنك فقط تلمح بقايا آثارها على تغضّن جلدك وشيب شعرك وتجاعيد عقلك الذي يصطف فيه الندم إلى جوار الذكريات العديدة فلا يكاد علم جديد يجد مكاناً ليبيت فيه، وإن فعل فإنه يُنسى كأن لم يكن!

الآن هو دورك

سيرن هاتفك آيها الصغير لتجد مني رسالة، إنني لم أكن جيداً بالإمتحان، إنني مُحبط...

هروب إلى البعيد

كان يحلو لي الهروب دوماً منذ وعيت وحدات الزمن المرتجفة، طرقات على باب بيتي ويعيدني " أولاد الحلال" إلى أمي الباكية، نظرات أصبحت أراها في كل لحظات حياتي ، نظرات أمي المتسائلة دوماً : لماذا؟ لماذا؟

تأخذني بيد غاضبة لأستحم من غبار الطريق، وتضعني في فراشي الوثير المليء بلعبي وحكاياها، تطبع قُبلة نورانية الطعم على جبيني المستكين وتتركني.

ما أصعب البقاء

***

سلم الخدم يناديني حيث أهبط عليه بعد سنوات من شبه التعقل وأنا أزيح بقدمي بقايا النفايات والقطط الكسولة التي لم يعد يحركها قادم، وتملأ أنفي رائحة العفن حتى بعد عبوري الطريق إلى اللامكان البعيد، لكني أعود هذه المرة بعد أن تنفذ نقودي،إلى عيني أمي المتسائلتين، بعدما أحاطت بهما بدايات تجاعيد محببة، تلقي إلي ببعض الملابس وتقودني إلى الحمام لأغتسل من عرقي وملحي وحمقي وهوسي.

لا فائدة .. تناولت- للأسف الشديد- عقار مهديء في تلك الليلة، رغبة الهروب إلى اللامكان البعيد تقتلعني من مقعدي، لم تُجد الحبة الصغيرة نفعاً، تاهت ذراتها الصغيرة في شغفي وجنوني بالمستحيل، خرجت تائه الخطوات أبحث عما سأفعله ، تطاردني عينا أمي المتسائلتان، وعدت هذه المرة مُحطم الإرادة، مستنداً على رَجُل كشجرة السنديان، هَاتَفت أمي بعض أقاربها ظناً منها أني قد اُعْتُقلْت، فجابوا السجون بحثاً عني، لكنهم وجدوني بطريق الخطأ عند مداهمة وكر ما في العالم الأسود، نظراتك يا أمي تتجلى فيها الآن خيبة الامل، هل كنت ستفخرين بي لو كنت عدت إليك من معتقل؟

هل يعود المعتقلون؟؟؟

***

ماتت عيناها، كنت أعود دوماً باحثاً عن عينيها المتسائلتين، لكني كنت أجد الخواء، أعادوني يوماً من شواطيء البلد البعيد، مقبوضاً على جنوني، لم يسألني أحد لماذا غادرت وأنت غير معوز؟ أو لماذا نمت في قاع السفينة مع أحلام الآخرين؟

عدت بعد تعب إلى فراشي، أسمع حكاياها وأترقب أن تدفعني كي أغتسل.

هل حقاً ماتت.

***

ساعات قليلة فاصلة، عبرت لتوي بوابة الخروج حاملاً حقيبة صغيرة، لم يودعني أحد، أخذت مكاني وربطت كل أحزمة هروبي، نظرت من النافذة الضيقة إلى عينيها المتسائلتين، زجاج النافذة يمنع أنفاسها من الوصول إلي، ساعات قليلة وأصبح هناك، لا أعرف بدقة المكان ، لكني موقن أن كل شيء سيكون جديداً.

تحسست حقيبتي وأغمضت عيني أتذكر أرقام حساباتي، لم يعن لي المال شيئاً من قبل، لكني أدرك أني خسرت كثيراً كي أهرب هذه المرة ، تركت كل شيء، فراشي الوثير، دفئاً كنت أحسه بين جدران المنزل، أمناً كان يغمرني دوماً ، وإحساس مؤكد بأن هناك من سيعيدني ثانية إليها، غادرت ولم أحمل معي غير حقيبتي وفكرتي اللعينة، هل تنبهت الآن فقط لكونها لعينة، رفعت الحقيبة الصلبة إلى رأسي ، الدق المتوالي على جمجمتي يحيلني إلى مجنون

هل كنت يوماً غير هذا!

***

فُتِحَت الحقيبة وتناثرت منها الأشياء، سقطت بين يدي عينيها المتسائلتين دقائق قليلة فاصلة- قبل الإقلاع - أعادتني إليها ، وقد تركت هناك على الصندوق الطائر إلى اللامكان البعيد، حاجاتي المتناثرة وأفكاري الرعناء، أحمل الآن - فقط - في قلبي ،وكما أفعل دوماً، عينيها المتسائلتين.

هنادي

يؤكد عليّ ان الاسم الذي اخترته جميل، يتمتم، جودي

أعبس عندما يرن الاسم في أذني، لا يتمتع بوقع جذاب، إنه لا يرقص، اسم صامت لا يمكن نطقه منغّماً، لن تسعد ابنتي بأفواه تنطق اسمها مضموماً مكسوراً.

جودي

إنه اسم تفرضه على اختياراتي صرعة هذه الأيام، لكني لم أحبه لهذا القدر، أنا من سيردده دوماً، أنا من سيناديها به، ولكن لا يهم الاسم، لا يهم.

أهمس لعليّ بتردد: لا أحبه.

يحملق بي ثم يبتسم، يحاول احتضاني فتوقفه الحقن التي تتصل بكفي وتتدلى منها تلك الخراطيم الكثيرة، تمنعه رقدتي على ذلك الفراش الأبيض، ويمنعه هزالي الشديد، يقرر أنني من سيطلق اسماً على اللعبة التي أنجبتها، ألا يكفي ما فعله في سبيل إنجابها.

يمازحني لينتزع ضحكاتي، ولكني لا أستطيع الضحك، جرح في بطني يمنعني وربما غصة في حلقي.

وألم بطول صدري.

وشق بعرض روحي.

لم يفهم عليّ أبداً كم أحتاج أمي في هذه اللحظات، ولم أفهم أنا أيضاً، لكن أمي بعيدة كالسحاب، كالقمر

نسمة، أهمس لعليّ: نسمة

فيقول إنك حتماً لا تعنين ذلك الاسم العتيق، إن هذا الاسم لفتيات في أواخر العشرينات الآن !! كما أنه متكلّف أقول لنفسي:نعم، إنه متكلّف

***

صغيرتي تسكن ذلك الصندوق الزجاجي البعيد لم أتمكن من احتضانها كما أردت، ولم تصرخ في صدري.

صغيرتي كانت بيضاء كالثلج في تلك اللحظات التي رأيتها بها، ولولا ضحكات عليّ لظننتها ميتة

لولا ابتسامة الطبيب ولولا إحساس قليل بأنها تتنفس، لظننتها ميتة أمي لم تأت.

ولن تأتي، أعرف ذلك جيداً، لكني لا أكف عن التأوه ألماً منادية إياها، فيربت عليّ على كتفي..

تبدو لي ربتته دافئة ككل أيامي القديمة معه، أيامي القديمة القليلة التي يحاول هو إعادة بثها في الوجود، إنه يمزح كالأطفال، يدللني، يذهب إلى أبعد النجمات ليأتيني بنتفة نور لعلّي أبتسم، سعيدة أنا بحبه لكنها ليست السعادة الكافية لأنسى.

يبقى الأمر في روحي كأنه لافتة إعلانية فوسفورية بعرض الطريق! لم ينزعه عن ذهني حملي، وأيام طويلة قضيتها راقدة أحملق في سقف أبيض اللون ،لم ينزعه مخدر دسوه في أذرعي ليستخلصوا مني تلك القطعة الصغيرة التي لم أجد لها اسماً بعد.

أقول له بلا تفكير وكأن شيطاناً يجلس فوق روحي: ما رأيك لو أسميناها هنادي.

يتشنج، أشعر به يتشنج رغم أني لا أرى ملامحه،ولا يرد

إنه يفكر، هل يرد أم يتصنع الانشغال ليفلت من نيران تسكن صدري الواهن.

هو بالتأكيد يفكر بأني كان يجب أن أنسى، وأغفر، وأضحك، وأتجمل، ويظن

أنني جاحدة ناكصة للوعد ومثيرة للأحزان والخلافات أو لعله يفكر بأنني أختبره، وأختبر ردة فعله، أو أنني أهذي بتأثير مخدر..

أو لعله بات يكرهني

أو يكره صراحتي

أفكر بحزن، هل دوام اختزان الألم هو من كان يقتل أطفالي في رحمي واحداً بعد آخر

أخيراً يلتفت إلي عليّ ويقول وعلى وجهه ابتسامة غريبة: نعم فلنسمها هنادي، تعلمين كم أحببت سابقاً هذا الاسم

أدير وجهي في حدة وكأن كلماته، لطمتني!

إنني أُخرِج أسوأ ما فيه.

لا أريد هذا، لا أريده، لكنني مسيرة إليه مدفوعة بعذاباتي الكثيرة التي تفتح جروحي وتتركها لغبار الذكرى.

يعطيني عليّ ظهره وينشغل بترتيب الزهور في الإناء البللوري الطويل، تنسكب عليه أشعة الشمس من الشباك الزجاجي الكبير فيسقط ظله بعنف على الأرضية البيضاء، أسمعه يؤكد بصوت خافت أن الورد يخنُق، أحياناً عندها تذكرت مرأى هنادي، تلمع بين كفيه في تلك القاعة الواسعة التي ضمت أهله كلهم، كل من أحبوني وكل من أحببتهم وظننتهم أمي،

كانوا جميعاً فرحين بزواجه منها، يتراقصون حول الشموع الكبيرة وتتساقط دموعي حمماً حولهم.

لم أنس بعد، ذلك الجرح لم ولن يندمل.

مات في رحمي وقتها جنيناً لم أكن أعلم بوجوده ، وماذا كان يفيد لو علمت، فكل أجنتي تموت.

التفت إلي علي قائلاً: اختاري اسماً بجمالك ورقتك وسماحتك

أحسسته يستجدي، فكرهت منه الاستجداء، تابعت بعيني قطرات الدواء تنساب في رتابة مميتة عبر الزجاجة المعلقة إلى وريدي، أريد سكب ما في وريدي، أشعر دمي مسموماً، أشعر دمي غليظاً بكثافة حزني السابح فيه.

تعاودني ذكريات نكرانه وابتعاده إليها، وأذكر أني ما فعلت حينها أي شيء، لقد انتظرت وانتظرت بصبر غريب، أكيدة كنت من عجزها عن حبه كما أفعل، لا أدري كيف تأكدت.

لعله ذلك الأمل الذي لم يفارقني.

لعلها أمي تاتيني كل حلم بشعلة نور تنير لي طريقي كما كانت تفعل دوماً أو لعله حبي لعليّ.

وتعاودني لحظة عودته مهزوماً، بلا أطفال، ممسكاً بورقة بيضاء سُطر فيها اسميهما، عليّ وهنادي، وتعلوهما كلمة قسيمة طلاق.

كان يستجدي في تلك اللحظة البعيدة، يستجدي غفراني، وأظنني سامحته وقتها لأني لم أحب ركوعه، ولم أحب خضوعه، رغم كل شيء وبعدها ظلت الأجنّة تتسابق في الموت داخلي.

ظلت أحشائي تنجب الموتى، بلا سبب، بلا أي سبب، ومع كل منهم تموت أشياء كثيرة، كثيرة، أنزف من نفسي وروحي وقناعتي ورضاي، كل مرة، ولا تظهر أمي أبداً، بمشعل نور.

***

يجلس عليّ متراخياً على المقعد البعيد، تطال الشمس وجهه ويرسم الظل مثلثاً طويلاً ينتهي عند منابت شعره الخشن، يرقبني صامتاً،لا أعرف فيما يفكر، أردد كالببغاء الملونة بالحمق : هنادي.

فيحملق في وجهي، ويقول ساخطاً : مصممة أنت على إزهاق روحي!!!!

ينتفض واقفاً، يحادث نفسه، يحادثني: نعم سأسميها هنادي، لتظل لحظة ضعفي جزءاً منك،تحتوينه،تحملينه على يديك، وترضعينه من صدرك.

يدور في الحجرة الواسعة، يدور كطاحونة هواء، تذروه ريح خفية في الغرفة فأراه كالأسد الهائج، يدور، ضارباً بكفه إناء الورد فيتحطم ملايين الذرات على الأرض التي تدور بفراشي.

يقول وأنا أكاد لا أقوى على فتح عيني،وهو يهزني من كتفي.

ما زلنا نملك كل شيء، مازلنا نريد الحياة ونريد تلك اللعبة الجميلة التي أنجبتها، كل شيء تغير، وعدتُ لك، عدتُ لك، ألا يكفيك أنني عدتُ لك؟

لم يعنيني أحد غيرك، ألم أقل لك ذلك؟ لم يعنيني أبداً مَقدِم طفل، كيف أمحو ما حدث من ذهنك؟ كيف؟ كيف؟

يردد لساني في تثاقل شديد: هنادي.

وأسأل عن أمي، فيتوقف عن الحديث، يبتعد في الغرفة التي تتسع ، هوة بركان يضمنا معاً، وأنا أؤكد لنفسي أنني لا أريد كل هذا، وأنني غفرت، وانني سأحيا له ولتلك اللعبة الصغيرة التي انتظرناها طويلاً، أؤكد لنفسي ذلك وأنا أعي تماماً كذبي وبهتاني، أنطق منادية إياه فيأتيني بوجه جامد، نتبادل الحمق، نعم، نحن نتبادل الحمق لأن أحدنا لم ينس.

الفعلة كلها حفرت للأبد فينا، لن يطمسها طفل.

يقف بجواري، ويلمس يدي في حنو.. ويسألني عن الاسم، الاسم الذي اخترته للعبتنا الجميلة التي سترمم كل شيء..

لم يفهم.. إنه لم ولن يفهم، هل لو ماتت طفلتي انتهى أمرنا؟ هل سيبحث عن هنادي أخرى؟ هل أقتل تلك اللعبة الصغيرة البيضاء، مغمضة العينين، هل أقتلها الآن وأستريح؟

هل كنت أقتل أجنّتي؟

مازلت يقظاً

ثلاث سنوات من النوم المتقطع أحالتني لكائن يقتات التوتر، كرهت النوم، وصارت الحياة متصلة اتصال دائم، احتال كثيراً وأؤجل بحث أوراق العمل لما بعد منتصف الليل، تختزلني الحياة يوماً بعد يوم إلى مجرد حلم، حلم يُزيد من ابتعادي عن فكرة التوجه لفراش، فاستوطنت مقعداً غير وثير وزهدت فراشي ما أمكنني الأمر.

حلمي الأول تطاردني تفاصيله حتى في لحظات اليقظة، حاملاً لي مرأى جدتي تشير إلي إشارة وداع مبتعدة بين أطياف باهتة، وقبل مرور أيام أتاني نبأ رحيلها في غربتي، شعرت أنها هدية السماء لأرى الجدة الحبيبة قبل الرحيل.

كنت قليل الأحلام، ولم يشغلني أمرها من قبل، فأحلامي كنت قادراً على تحقيقها، كنت أعاني خلطاً بين ما أراه بنومي وبين طموحاتي، الأحلام هي ما أصبو إليه وأود إحالته لحقيقة واقعة، وليست ما أراه بنومي بعد وجبة دسمة وانفعالات زائدة قبل النوم، لفظة الحلم كانت تحمل لي معنى وارفاً بأمل قارب على التحقق ورغبة أحتاج إلى صياغتها في دنيا الواقع، كم كنت أحيا بتلك الأحلام –الطموحات– وأتزود بها على مر الحياة.

لكن حُلمي التالي كان أشد وطأة، وحمل لي سحب الغبار والأتربة تعلو بين الغيوم بينما يتهاوى بيت أسرتي بدوي هائل، حزمت حقائبي بعد الصحو الفَزِعْ لألحق بوالدي على فراش مرضه المفاجيء وأتقبل العزاء واجفاً مرتعباً أو مذهولاً كما همس الجميع.

حينها عرفت ماهية الأحلام، وأيقنت أنها لعنتي التي أصبت بها، استطعت بغير تعب أن أفض اشتباكاً بينها وبين معانٍ أخرى في عقلي الذي صار يقظاً على الدوام، وعرفت أنها تحمل لي بين أضغاثها بكارة الأحداث، وتختصني بالعلم البغيض، لم أفكر من قبل بأمر كهذا، ولم أكن أذكر من أحلام النوم غير وجوه عابرة وأحداث غريبة، لكنها صارت شغلي الشاغل، تنبهت لوجودها كتَنَبُّه المرء لوجود عضو به كقلبه أو صدره، فقط عندما يغزوه الألم، وأخذت قراراً بتحاشي النوم، هروب دائم وسهر مستمر، وتهاوِي في نهايات الأمر، كنت أسقط كورقة شجر يابسة أوان الخريف، يقتلني الإعياء فيأتيني الحُلم منتصراً حاملاً لي حدثاً، ساراً حيناً، وشؤماً في غالب الأحيان، فأصحو لاهثاً محملاً بالإنتظار.

أصابني الوهن، صرت شيخاً يابساً يائساً، أرى في المرآة تهدُل كتفي، وهالات التوجُس السوداء أسفل جفني، كنت أهزأ بمن يحارب طواحين الهواء، لكن دون كيشوت يحارب ما يراه ولا يفعل مثلي، أحارب طبيعتي

وأدرك أني خاسر بلا جدال، أيقنت أن ابقاء المرء يقظاً من أبشع وسائل تعذيب بني البشر، وأصبحت أصلي قبل لحظة التهاوي، وادعو أن يعافيني الله من محنة العلم المبكر.

ثلاث سنوات أخالها ثلاثين، وأنا أسير مقعد خشبي ، تحيط بي الساعات الرنّانة، ويسبح بيتي في إضاءة مبهرة، ثلاث سنوات من العذاب قبل أن يأتيني الحلم الأخير!

إنه يناديني

هيا إلي، تعالي يا فتاتي الجميلة، كم إنتظرتك طويلاً طويلاً، وكم أرقني الإنتظار، لكني كنت أعرف انك ستأتين يوماً ما، وتلاقينني في هذه البقعة البعيدة، كنت موقناً أني سأكون ملاذك ومهربك، ما أجملك، وأنت تتهادين أمامي بثوبك المزركش بألوان قوس قزح، وخصلات شعرك الحالكة السواد، مستسلمة لعبث الرياح وأنفاسها المعربدة، ما أجملك.

دعيني يا فاتنتي أتأمل قسماتك الحزينة، وأشعر بهذا الألم المعقوص في صدرك، دعيني أرى ظلم الآخرين منقوش على جبينك الطيب، وألمح اليأس يتسرب من عينيك زخات دمع، ويولد غيره بمقلتيك في اللحظة ذاتها، دعيني أحس بدماء الوحدة تثور بشراييناك وتكسب وجنتيك هذه الحمرة الساحرة، دعيني أسمع زفراتك، آهاتك، أناتك التي واريتِها دوماً و دفنتِها في قمقم الإستسلام، والآن يخرج المارد ويحملك إليّ.

لا يا جميلتي، لا تظني أني أحب ألمك، وأتغزل بحزنك، وأطرب ليأسك، لكني لا أخفيك أني أدين لهم جميعاً بفضل وجودك هنا أمامي، سائرة بحذر هرة مذعورة، ترسم قدماكِ العاريتان العارية على رمال الشاطيء بصمة

إعترافك الجميل بأنك آتية ، وتحكي ذراعاك المتخاذلتان عن قبولك بي أخيراً، وتفك خطواتك المتتالية طلسم إنتظاري الأبدي لك.

تعالي إلي يا فاتنتي، أرمقيني بهذه النظرة الساحرة التي طالما جئتني بها قبلاً، أتذكرين؟؟ لقد عاشت عيناك على صفحتي.. تدمعان وتبكيان وتحكيان دونما كلمات وكنت أسمع بلا آذان، كنت أعيشك، وأشتاقك وأتلهفك ، لكنك كنت تقاومين، وتعاودين الرحيل وكأنني أنبت شجيرات الأمل الصغيرة بداخلك، كنت ترحلين، وتتركين بعضي يصارع بعضي وامتد زاحفاً وراءك، عابثاً بكل قوانين الطبيعة حتى أُلامس أطراف قدميك المبتعدتين، كم عذبِتني أيتها الجميلة.

والآن أتيتِ، نخبة من باقات اليأس تسكن قلبك، وعطر قديم يعطر ثوبك الزاهي، يا إلهي، هل أطمع أن تأتيني فرحة متعطرة، كم حلمت بذلك، ولكن ليذهب حلمي كله إلى أعماق الجحيم، يكفي أنك أتيت لتلقي بنفسك في أحضاني، تصارعينني، وأهدهدك، تقاومينني ، وأحنو عليك تستغيثين بعابر سبيل من بني جنسك فلا يسمعك سوى موجي الهادر، وفي النهاية تستسلمين، وتذهبين في أعماقي السوداء، وترقدين كالملاك على أرضي وسط فراش موشى بالطحالب الراقصة، هيا يا جميلتي..هيا..

لا تحجمي، دعي اليأس يتمكن منك ، إقتربي.. إقتربي.

البيت

البيت، جدرانه الملونة العديدة التي تكسو أطرافها قطع الخشب البيضاء، وتصطف عليها اللوحات الزيتية المذهبة الأطراف، بعض الجدران يزدان بصور كثيرة متلاصقة لأشخاص يبتسمون يضحكون ويركضون وتتشابك أياديهم، والسقف العالي يضم الجميع في حنو تزينه الورود المنحوتة بعناية، الجميع يلهج بالصمت والسكون ويحيا في رتابة تتابع الليل والنهار.

الأتربة المتسربة من الرياح البعيدة تتراكم في تؤدة وإصرار لتصطف طبقات فوق الأرضية الرخامية الباردة، تحاول ملامسة الجدران الصامدة، تتعلق بها، لكنها تنساب للأسفل وتتهاوى بتتابع ودأب.

ـ مآلك دوماً إلى الأرض مهما علت بك الرياح أياماً، لن تستطيعين التعلق بي وطمس ألواني، ستسقطك اللوحات والصور التي تزّين ناحيتي إلى القاع حيث مكانك دوماً.

ـ ما عاد أحد يهتم، سأسكنك يوماً عندما تتعالى الطبقات شيئاً فشيئاً، سألامسك كما أشتهي، سأتعلق بتلك اللوحات التي تغترين بها، وسأغزو

ألوانك لأغطيها بلوني الكالح وبإصراري على الحياة، إنه صار بيتي وسكني ومأواي.

ـ إنهم قادمون، سترسم نعالهم فوقك عار الزوال، بينما سأظل أنا في عليائي، ستلمع اللوحات عندما تضاء الأنوار كل ليلة، وستسمعين صدى الضحكات يرتد مني ويعود إليّ، سينزعون تلك الستائر ليعيدونها للحياة مرة أخرى، وسيُبعث الزهر المطبوع على أطرافها من جديد، سينتشر شذاه في المدى ليمحو رائحتك الكريهة، التي طالما عذبتني

القاعة الفسيحة تستكين في صمت، ترمق الشرفة الكبيرة بأسى حزين، الصمت سيد المكان رغم صخب الأشياء الكثيرة هنا وهناك.

زجاجات العطر تتناثر على رف خشبي مزخرف، تتطلع في المرآة المعتمة بسأم شديد، بينما يلمع المصباح المتدلي من سقف الحجرة لمعة يائسة ويتثائب مُعلناً عجزه، ويلف الظلام المكان.

يشتد الصخب هناك، حيث تتراص الكئوس خلف الزجاج الملون، ويدور عقربا الساعة القديمة في بطء ظاهر ولا يعبران عن زمن حقيقي بل ينعمان بالتراخي التام الذي سينتهي حتماً بتوقفها عن الحركة الدائبة، وتسكن الأواني الكثيرة في صوان خشبي في الأسفل، تتحرق للخروج من سجنها الطويل.

ـ إنهم لا محالة قادمون، لن يتركون السجن الزجاجي البراق يحتوينا طويلاً

ـ إنكم ترون الدنيا من خلال زجاجكم الملون، بينما نحن يلفنا الظلام الدامس والهواء الراكد، كم نشتاق جميعاً للحياة

ـ أتذكرين يا رفيقتي تلك الشفاه التي كانت تلامس أجسادنا في نهم، بينما نحوي في داخلنا شراب اللوز الشهي، أتذكرين الإبريق الذي نعيناه طويلاً عندما تحول إلى ذرات صغيرة، كم آلمني فراقه

تململ الصوان الخشبي في الخارج محاذراً أن يزعج الأطباق الموشاة بالذهب والتي تقف بداخله بخيلاء وزهو.

ـ لن يستمر الحال طويلاً إنني أسمعهم قادمون، أسمع خطوات كثيرة أمام باب البيت، إنهم حتماً قادمون.

يستمر اللغط قليلاً في الخارج، وتبتعد الأقدام إلى البيت المقابل، صوت الجرس البعيد يقتل الحلم بالحياة، وتعود كل الأشياء إلى الصمت الحزين.

ليال بالمهجر

الحياة أقصر كثيراً مما نظن..

تبدو الإشكالية عظيمة عندما أردت مناقشتها معهم، لم تكن كذلك عندما كنت أحادث بها نفسي، كان الأمر في سهولة إشعال القدّاحة؛ أشعلتها بالفعل وأنا أحاول إقناعهم فسألني أحدهم إن كنت أدخن، مستنكراً، فلم أجب.

كنت أحمل أوراق هويتي وجواز السفر بإعزاز، وكنت أنتظر ترحيباً منهم للفكرة لكنهم بدوا لي غرباء لم يعرفوني يوماً، وبدا الأمر مثيراً للسخرية إن استمر الجدل؛ فالأوراق موسومة بتواريخ ميلادي الجديد لكنهم لم يفهموا، بعضهم أراد الإجهاض والآخر أراد الوأد.

أتذكر أنني دخنت أول سيجارة في ذلك الجمع ليس رغبة في ملأ الصدر بالدخان ولكن لأني لم أشأ استقبال زفيرهم في صدري!

– على السادة الركاب...

كنت أنا إحدى السادة الركاب، الراكبة التي لم تحمل تذكرة إياب في حافظتها الجلدية، تريثت قبل الخروج الأخير وألقيت نظرة ثم جمعتها بعيني مرة أخرى وأغلقت عليها جفوني؛ عاملت صالة المغادرة كأنها قاعة احتفال

تضم عُرسي الذي لم يتم أبداً، وأردت توثيق اللحظة. لاحظت كومة من الوسخ خبأها عامل في الركن القصيّ لحين تناول فطوره فنكأتها بمقدمة حذائي وبعثرتها في الممر؛ تحية أخيرة للوطن.

كنت بغاية العجلة ولم ألتفت لكوني بلا مودعين

– أنت أول شرقية سمراء أراها خضراء العينين !

كان الوسخ الذي نكأته أخضر في مُجمله يحمل بثناياه وريقات أشجار اصطناعية، وكان حذائي زيتوني اللون، يخبرني "آل" أنني حتماً كنت هنا قبلاً؛ فبرغم استثنائية ملامحي فهو يقسم كل صباح أنه واعدني قبلاً، "آل" زميلي في العمل والدراسة، أعرف عنه قدر ضآلة حروف اسمه!

ولكني كنت سعيدة، أو هكذا ظننت! في الليل كنت أعتز بالوحدة وأضم إليها صدري ولا أشعر بصقيع تخبر عنه وكالات الأرصاد كل ليلة، كنت دافئة كثمرة بطاطا مشويّة. وفي النهار كنت أعمل كآتان.

***

– لم أحبُكَ يوماً ولم تر منّي غير ألم متقلّص..

كانت هذه رسالتي إليه؛ خالد.

بريدك ممتليء لهذا لا يكف عن إعادة تلك الرسالة التي أرسلتها آلاف المرات!

بريدك ممتلىء. ولا يريد أن يستقبل كلمة تقطع الخيط الواهي، بريدك يؤدبني كما ظللت تفعل هناك، بجوار كومة الوسخ الكُبرى. وأنت لا تتوقف عن الإرسال كأن بريدك يحمل مثلي تذكرة باتجاه واحد.

سلْ بريدك! سيخبرك، لقد ذهبت، ذهبت. ولكنك لا تريد لي غير أن أعود، واعداً إياي بالدفء الزائف، وحفل عُرس! ويرسل مجدداً:

– لا أصدق أنك وحدك ولا أصدق أنك تمرحين!

أفعل! أنا أمرح وحدي وأثق بأني رفيقة طيبة لنفسي في تلك الرحلة اللانهائية، أصدقاء العُمر يرسلون لي صورة جامعة لهم على الهاتف بينما يطفئون الشموع بعيد ميلاد أحدهم، وترى عينيّ كومة خضراء بجوار المنضدة، ألمح في ركن الصورة وجه أعرفه لكني لا أذكر الإسم! بدأت في نسيانهم، وسيرحل النسيان إلى الطرف الآخر من الصورة وهنا أكون قد نسيتهم جميعاً. وستنطفيء الشموع بالذاكرة، بل ستنطفيء الذاكرة! كنت أمرح وحدي، باكية أمام فيلم عظيم، في قاعة السينما الخاوية، حينما تذكرت أنني لم أصنع لي هنا أية ذكريات بعد!

***

- الحياة أقصر كثيراً مما نتخيّل

قلت للرفاق ونحن نتناول مشروباً بعد العمل، أن الخطوط المتوازية لا يجب أن تكون كذلك ويجب أن تتقاطع لتصنع نوعاً من الشِبَاكْ! فمطّوا شفاههم جميعاً، أخبرتهم عن الزحام الذي نهرب منه للوحدة والصخب الذي يجعلنا نمضي الحياة بصمت، الحق أننا يجب أن نخلط الأشياء ببعض، لننجو، فقرروا أنني كبيرة الساحرات وأن الإجتماع قارب على الإنتهاء، سخروا مني كثيراً فبادلتهم النكات، لكنهم بدوا لي -أيضاً- غرباء لم يعرفوني يوماً، لم أشأ أن أفسد لحظة بدأت فيها أصل لشيء من الذكريات المصنوعة حديثاً! وعدت أؤكد لنفسي أنني على حق، حتى لو لم أحسن التعبير، أو أنهم لم يفهموا. كنت أحصي أيام ابتعادي فيما مضى، ولكني صرت أحصي الشهور ومن ثم السنين، ومللت!

اليوم كنت أصحو على صوت مختلف، هناك ثلوج تحيط بالبناية، والجيران قرروا قضاء الوقت في نزحها مجتمعين، أشرت للجميع بعلامة نصر قديمة من خلف الزجاج فخُيّل إلي أني سمعت اعتراضاتهم المكتومة لعدم مشاركتي، شربت كوباً من الحليب، وأنا استمع لحالة الجو بانتباه، عندما عدت إلى النافذة، رأيت كومة وسخ خضراء في بداية الممر! ولأول مرة تساءلت: هل كومة الوسخ الخضراء موجودة بالفعل؟ أم هو لون عيوني؟!

إنها تكتب

"أمي تكتب الآن"

قلتها في التليفون لصديق طفولتي فأدرك أن بإمكاني الحديث طويلاً وربما الخروج أيضاً، لكني كنت مُرهقاً بعد يوم عمل طويل قاس فاخترت أن أجاريه في حديث تغشاه النكات، ثم قررت إعداد عشاء دسم لأمي، تبدو روايتها مرهقة لأعصابها بشدة هذه المرة، أعرف ذلك لأنني مررت قبلاً بإحدى عشر رواية أسهل بكثير.

أمي تمتلىء بكافكا وكويلهو وجبران وإيفانز وشكسبير ومحفوظ وآخرين، يجلسون معنا دوماً على العشاء؛ الوجبة الوحيدة التي نجتمع فيها، يلقون بنكاتهم على لسان أمي، الحقيقة أنها قليل من النكات كثير من الأقوال التي تقريباً تُسيّر حياتنا، فمثلاً أمي تدفعني للكتابة وكلها ثقة أنني موهوب مثلها، لا تعترف أن حبي للأرقام يشغل حيز أفكاري وبحكم عملي في البنك لا أرى غيرها ولا يمكنني التفكير في حرف بعد خروجي من العمل، لكن كافكا يخرج علينا قائلاً أن الكتابة ستجعلني أهجر معسكر القتلة!

لكنها تستسلم أحياناً عندما أجلس مع ناشر رواياتها وتراني أدير أعمالها وأرباحها بشكل ناجح، ونتحدث بعدها أنا وهي ودستوفسكي فيقول/ تقول أنه يلذ لها الحديث أحياناً مع شخص ذكي..

كم أكره هذا الرجل – دستوفسكي- فقد كان هو سبب رفض أمي لفرصة عمل عظيمة لي في الخارج فور تخرجي وقد كنت مُسلحاً بما لم يكن معتاداً وقتها بين زملائي، لكنها أمي التي صممت على بيع أجزاء من أرضها لأرتاد أرقى جامعة أجنبية في بلادنا، دستوفسكي.. ألم يقل وهو يعد لنا العشاء أن البقاء في الوطن أفضل! حيث يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شيء وأن يبريء بذلك نفسه!

حسناً، كان هذا ما فعلت واستكنت إلى اتهام دستوفسكي بإفساد حياتي.

لكني أذكر جيداً كيف وقف درويش إلى جواري بعد قصة حب فاشلة عندما سافرت أنا وأمي إلى مطروح وهناك على شاطيء خالِ أخبراني أن حبيبتي ستُنسى كأنها لم تكن..

آه.. أجل إن "أمي تكتب الآن" فتسكن حتى العصافير الحبيسة التي تفرّج عن نفسها بالزقزقة، وتصمت نباتاتها الخضراء الكثيرة عن الحفيف ربما نتاج صمت الهواء هو الآخر. أمي تكتب ولا تعي حتى صدى لما تكتبه يتردد

على صفحات جريدة أو تجمع أدبي أو ندوة بجامعة، إنهم يتعاملون مع صمتها بإجلال وكأنها متوفاة!

***

لم يكن ينقصني شيء لأشارك بثورة، على من أثور؟ ثورتي في الأصل على حالي الشخصي وأحلامي الضائعة في حيز ضيق تماماً كضيق هذه الزنزانة! يطحنني فساد من كل جانب لا يراه غيري أنا وقلة قليلة، نمارس الرقص، فلا نبدو إلا بصورة معتوهين أمام من لا يسمعون الموسيقى. من قال هذا يا أمي؟ نيتشه؟

وخرجت ذليلاً من عريني بعفو اتخذ اسماً آخر ليلائم العصر، اكتشفت أن أمي تستطيع أن تتواصل مع آخرين وتسعى كنمرة شرسة للدفاع عني، أمي الحبيبة ناضلت رغم يقينها بعبث فعلتي لكي تخرج بي إلى نور باهت أسمته شمس الحرية. وعدت بروح متثاقلة إلى عمل آخر بعد أن فقدت عملي الأول، تجربتي في ممارسة الحرية باءت بالفشل ولم أختلف أبداً عن عصافير أمي.

***

أخبرتني أمي ذات ليلة أننا لا نحصل إلا على ما نعطيه، ولم أفهم بالطبع المقصود بالسرعة الكافية فأخبرتني أن عشاء الليلة سيكون سمكاً ومحاراً بوصفة طعام من تشيلي، ولما لم ألتقط الرسالة أخبرتني عن قصة إيزابيل، إيزابيل الليندي.

بعد انتهائنا من العشاء أخرجت أوراقاً كثيرة وضعتها أمامي يعلوها جوازيّ سفر، وأخبرتني أنها ستحصل على ما ستعطيه لي، الحرية.

اكتشفت أن أمي سيدة تستطيع أن تفعل المستحيل، وكان المستحيل في نظري أن تتخلى عن بيتها/ وطنها الصغير لكني عرفت أنها أعدت بكل أموالنا بيتاً هو ربع بيتنا الحالي وشحنت إليه كل ماتحب، أمي المستحيلة سعت عبر الإنترنت لتجد لي عشرات من فرص العمل هناك.

***

كنا في الطائرة، وثالثنا جلال الدين الرومي الذي قال وعلى وجهه ايتسامة مستبشرة: ماتبحث عنه يبحث عنك.

تمت المجموعة بحمد الله

الفهرس

تلك اللحظات

ألزهايمر..... ١١
إثم مركّب..... ١٥
أحاديث المقهى..... ١٩
الدائرة..... ٢٣
شياطين صغيرة..... ٢٧
رهاب الحلم والواقع..... ٣١
العجوز..... ٣٥
يوم في حياة صابر..... ٣٨
لي لي..... ٤٢
المصاغ..... ٤٨
المصور..... ٥٥
الضفة الاخرى..... ٥٩

كثير من الجنون

وأنا ميت بالطبع..... ٦٥
هل أكلت الحروف رأسي؟..... ٧٠
كائن ثلاثي الأبعاد..... ٧٧
لا يَنسى..... ٨١

أيام للبيع..... ٨٥
اللعنة..... ٨٩
الناس صناديق مغلقة..... ٩٣
باقة الورد..... ٩٩

ما لا يقال

مشوار..... ١٠٥
هيفاستوس..... ١٠٩
زمن له أجنحة!..... ١١٣
هروب إلى البعيد..... ١١٧
هنادي..... ١٢١
مازلت يقظاً..... ١٢٩
إنه يناديني..... ١٣٣
البيت..... ١٣٥
ليال بالمهجر..... ١٣٩
إنها تكتب..... ١٤٣

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.